رسول الشعر العرفاني

جلال الدين الرومي

بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية الثامنة لميلاده

تأليف وإعـــــداد

سـمير أرشـــدي

أستاذ في كلية الآداب - جامعة الكويت

الكويت

2007

راجعـــه

محمود البجالي

الصـف والتـنفيـذ

قسم الكمبيوتر في الأمانة العامة للمؤسسة

تصميـم الغـــلاف

محـمـد العـــلـي

حقوق الطبع محفوظة

مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري
E-mail : kw@albabtainprize.org

تصدير

لاشك في أن الحضارة الفارسية بمقوماتها العريقة وتجاربها الإنسانية الخصبة قد مثّلت ركنًا ركينًا في تشييد صرح الحضارة الإسلامية وأمدَّتها بالعديد من العوامل المؤثرة في ازدهارها ولا سيما في الجانب الأدبي. وقد حظي الشعر في الثقافة الإيرانية بمكانة رفيعة ومتميزة حيث تؤكد صفحات التاريخ أن أبرز الوجوه الأدبية والفكرية الفارسيّة خلال الألفية الماضية كانت من بين الشعراء الذين حازوا على شهرة عالمية وفي طليعتهم الفردوسي وحافظ وسعدي وجلال الدين الرومي وعمر الخيام.

ويحتل جلال الدين الرومي منزلة رفيعة في الأدب الفارسي خاصة والأدب الإسلامي عامة حيث بدأت شاعريته في الثامنة والثلاثين من عمره، وأخذ ينشد الشعر ارتجالاً دون أن يدرس شيئًا من أصوله وقواعده، وقد أكثر من قرض الشعر حتى فاق نتاجه الأدبي بقية أقرانه من أقطاب الشعر الفارسي، وكان المولوي الرومي مولعًا بالأساليب المستحدثة، ولذا عُدَّ مجدِّدًا في عالم الأدب ولا سيما الغزل والعرفانيات.

لقد أبصر الرومي العالم برؤية جديدة، وكان من جملة المبدعين الذين حوَّلوا وجهة الشعر الذي كان مسخّرًا لخدمة أهل البلاط إلى شعر إنساني يهتم بالفئات الشعبية ليرتقي من منطلق التربية والتعليم إلى تأدية دور فعال وأساسي في بناء المجتمع.

إن قصائد وغزليات الرومي مهيّأة لإقامة منهج عالمي مبني على توفير الخير والفلاح للإنسان انطلاقًا من التسامح والتفاني، مما يجعل قراءته ضرورة ملحَّة لكل مثقف يطمح لحوار الحضارات وتمازج الثقافات وتعايش الأديان.

إنه شاعر متعدد الثقافات يدعو في حكاياته إلى التفاهم والتقارب وتطهير النفوس من التحجُّر الفكري وقصر النظر والتعصب الأعمى، ويؤكد في قصائده على أهمية التعددية الثقافية والتناغم الفكري مع الآخر الذي ينظر للقضايا الدينية والفلسفية بمنظار مختلف.

وانطلاقًا من أهمية الشاعر وإبداعه على المستوى الإنساني، فقد أقرّت منظمة اليونسكو العام الحالي للاحتفال بالمئوية الثامنة لميلاده فرأت المؤسسة مشاركة أبناء العالم بهذه الاحتفالية وتعريف القارئ العربي بهذه القامة الأدبية الشامخة، شاكرًا الأستاذ سمير أرشدي على جهده في تأليف وإعداد هذا الكتاب.

والله ولي التوفيق والسداد،،

عبدالعزيز سعود البابطين

الكويت في 21 من ذي القعدة 1428هـ
الموافق 1 ديسمبر 2007م.

✱✱✱✱

مقدمة

في مقطع زمني عصيب تحتدم فيه الصراعات الطائفية والتناحرات القومية والعرقية وتتضاعف حدة الصدام الحضاري، نجد أنفسنا بأمس الحاجة إلى أدب يهذب النفوس ويصقل الأرواح ويزيل عنها الصدأ لتستعيد قيمتها المعنوية التي تؤهلها للعودة إلى بارئها راضية مرضية.

آن الأوان للعودة إلى تراث أمتنا ومفكرينا وشعرائنا، لندرك أن وراء العقل قلبًا إذا صقلت مرآته تجلت فيها أسرار الكون الكامنة في أعماقنا، وما علينا سوى سبر غور أنفسنا لنكتشف هذه الأسرار.

لقد نجح الإنسان في تحقيق القرية الكونية التي يسرت وسائل مدهشة للترف وللراحة، وأنجز فتوحات علمية وتطورات تقنية مذهلة وسخّر الفضاء، إلا أنه عجز عن تحقيق الطمأنينة النفسية والسكينة المعنوية التي تتمخض عن السعادة، وهذا ما دعا إليه مولانا جلال الدين الرومي في غزلياته العرفانية.

يقول الأستاذ الدكتور فكتور الكك إن ما قيل في المتنبي قبل ألف عام أنه «مالئ الدنيا وشاغل الناس» يصح في مولانا جلال الدين البلخي الرومي في أيامنا، حيث ظهرت في أوروبا ولا سيما في فرنسا ترجمات لبعض آثاره ومختارات من قصائده وتراثه العرفاني الغزير والمميز بين ميراث أهل السير والسلوك، الذين صقلوا مرآة القلب فتجلّت فيها الأنوار الشعشعانية كشفًا وشهودًا. أما الحال في الولايات المتحدة الأمريكية فكان أكثر وضوحًا وانتشارًا، حيث غدت ترجمة الشاعر الأمريكي «كولن باركس» لغزليات الرومي في طليعة لائحة الكتب الأكثر مبيعًا في أمريكا. ولا يحتاج تعليل هذه الظاهرة إلى شرح وإسهاب، فهي ببساطة تبرهن على الخواء المعنوي والفراغ الروحي الذي يعاني منه الغرب اليوم حيث وجد ضالته في قصائد جلال الدين التي تروي ظمأه وتَشفي غليله وتنقذه من الإحباط الذي يتخبط فيه وترتقي به إلى آفاق عالم يؤمن بالله الواحد القهار، وترشده إلى طريق الحق وبلوغ مرتبة الإنسان الكامل.

يصف جلال الدين الرومي هذه الشعلة التي وهبها الله لتستعر في وجود الإنسان ليمدها بزيت العرفان من زيتونة الروح الذي يضرم فيها نار العشق، فيرى ما لا تراه عين بقوله:

من سدرة المنتهى جاوزتُ أفلاكا
قرنًا بقرنٍ طويتُ الدّهر ذيّاكا
سوطُ الرحيم رماني في ذُرا فلكٍ
بوركتَ من عَضُدٍ يُمناك مرماكا
قد حال ناسوتُنا لاهوتَ معرفةٍ
لا تجتليه عيون الإنس لولاكا
فالحالُ منّيَ أحوالٌ مجّنحةٌ
لا النطقُ يشرحها أو حدسُ مولاكا

وانطلاقًا من اهتمامها بالأدب الإنساني ودوره في بلورة التلاحم الحضاري، والتمازج الثقافي بين الشعوب، بادرت مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري مشكورةً، للمساهمة في مشروع منظمة اليونسكو التي أقرت العام الحالي للاحتفال بمرور ثمانية قرون على ميلاد الشاعر جلال الدين الرومي.

لا شك بأن الإحاطة برؤى وأفكار هذا الشاعر تحتاج إلى دراسات موسعة وقد حاولت في هذا الموجز أن أستعرض شذرات من فكره العملاق محيلاً القارئ اللبيب إلى العشرات من المصادر الأخرى في حال رغب في الاستزادة.

والله ولي التوفيق.

سمير أرشدي
أستاذ اللغة والأدب الفارسي
جامعة الكويت

✱✱✱✱

احتفالية الأمم المتحدة
بميلاد جلال الدين الرومي

انطلاقًا من العشق الإنساني الذي تطفح به قصائد جلال الدين الرومي وأبياته المشبعة بالمفاهيم الروحانية والمعنوية، المستلهمة من المصحف الشريف والأحاديث النبوية ودورها في تحقيق التعايش السلمي والحوار الحضاري بين الأمم، أقامت منظمة الأمم المتحدة احتفالية حاشدة بمناسبة ذكرى مرور ثمانمائة عام على ميلاد مولانا جلال الدين الرومي وذلك في مقرها الرئيسي في نيويورك.

وفي كلمة له بهذه المناسبة أشاد بان كي مون الأمين العام للمنظمة الدولية بعظمة هذا الشاعر الخالد، مؤكدًا بأن العالم اليوم بحاجة ماسة لإشاعة وتبليغ رؤى الرومي أكثر من أي وقت مضى.

وأضاف بان كي مون بأن السلام والاستقرار وحوار الحضارات مفاهيم مغروسة في قصائد الرومي وأن المجتمع العالمي يجب أن يقتدي بها ويستلهم منها.

وقد أقيمت الاحتفالية مساء يوم ٢٧ يونيو (حزيران) ٢٠٠٧ بمبادرة مشتركة من الجمهورية الإسلامية الإيرانية وأفغانستان وتركيا في رحاب منظمة الأمم المتحدة بمناسبة ذكرى مرور ثمانية قرون على ميلاد الرومي.

وقد شارك في هذه الأمسية الثقافية رئيس الجمعية العامة للأمم المتحدة وكوكبة من المفكرين والأكاديميين من مختلف دول العالم، وجمع غفير من عشاق الرومي حيث ألقى عدد من الباحثين من إيران وأفغانستان وتركيا وأمريكا محاضرات وأبحاثًا تناولت المكانة العلمية والمعرفية لمولانا الرومي وأجابوا في ختام دراساتهم على استفسارات الحاضرين.

وتخلل الاحتفالية برامج فنية ومقطوعات موسيقية لمنشدين وفنانين من الدول الثلاث المنظمة للاحتفال.

وبهذه المناسبة أصدرت الولايات المتحدة طابعًا بريديّاً تذكاريّاً مستلهمًا من لوحة للفنان الإيراني المبدع (بهزاد).

✱✱✱✱

اليونسكو تحتفل
بميلاد جلال الدين الرومي

احتفال حاشد شهدته منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) في مقرها بالعاصمة الفرنسية بمناسبة مرور ثمانية قرون على ميلاد الشاعر الإنساني جلال الدين الرومي.

وضم الاحتفال الذي أقيم في السادس من سبتمبر (أيلول) ٢٠٠٧ في باريس حلقة دراسية دولية بمشاركة علماء بارزين وأكاديميين من إيران وأفغانستان وتركيا إلى جانب خبراء دوليين متخصصين بالآداب العالمية.

وقد افتتح الحلقة الدراسية السيد كويشيرو ماتشورا مدير عام منظمة اليونسكو الذي أشاد بأفكار هذا الشاعر والمعلم الروحي الأسطوري ودورها في معالجة الكثير من الأزمات الفكرية والاجتماعية والتربوية التي تعاني منها شعوب العالم.

كما أقيم على هامش الحلقة الدراسية معرض للكتب والمخطوطات واللوحات المرتبطة بتراث جلال الدين الرومي وأشعاره.

وقد أصدرت منظمة اليونسكو ميدالية تذكارية باسم المحتفى به. وقدمت عدة فرق فنية من الدول الثلاث معزوفات موسيقية ولوحات استعراضية مستلهمة من ديوان المثنوي.

اليونسكو تُصدر وسامًا باسم الرومي

أقرت منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) وسامًا خاصًا يقدم للشخصيات العلمية والثقافية والأدبية العالمية باسم جلال الدين الرومي. الجدير بالذكر أن

هذا هو ثاني وسام تعده اليونسكو باسم شخصيات علمية وأدبية ساهمت في إحياء الفكر والتراث الفارسي، حيث كان الوسام الأول باسم الشيخ الرئيس ابن سينا والمعروف بفيلسوف النفس البشرية، والمولود في عام ٩٨٠ في إقليم بخارى.

مؤتمر دولي أكاديمي حول الرومي في طهران

في إطار الاحتفال الأممي بمرور ثمانية قرون على ميلاد جلال الدين الرومي أصدر فخامة الدكتور محمود أحمدي نجاد رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية مرسوماً يقضي بعقد مؤتمر دولي حول الرومي يتناول دراسات علمية معمقة حول هذا الشاعر العالمي.

وتم تكليف السيد صفار هرندي وزير الثقافة والإرشاد الإسلامي برئاسة اللجنة المنظمة للمؤتمر الذي عقد في بداية شهر نوفمبر في العاصمة طهران بمشاركة (٨٥٠) أستاذًا جامعيًا ومؤرخًا من إيران و(٣٠) دولة إسلامية وأوروبية وعربية.

وقد عكفت اللجنة المنظمة للمؤتمر على إعادة طبع دواوين الرومي وتصحيحها وتنقيحها ونشرها بحلَّة قشيبة لتكون في متناول الدارسين والباحثين. وتعد إيران من أكثر الدول المهتمة بقصائد هذا الشاعر الإنساني حيث تدون سنوياً العشرات من الأطروحات والرسائل الجامعية وتناقش بحضور النخب الثقافية والعلمية. كما أقيمت في إيران بهذه المناسبة العشرات من الندوات العلمية التي احتضنتها الجامعات الإيرانية التي احتفلت بهذه المناسبة بإقامة العديد من المعارض الفنية والتشكيلية المستلهمة من أفكار الرومي ومبادئه الإنسانية والإسلامية.

أحمدي نجاد: المجتمع البشري بحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى فكر مولوي

قال رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية فخامة الدكتور محمود أحمدي نجاد أمام الملتقى الدولي لتكريم الذكرى السنوية الـ٨٠٠ لولادة مولانا الشاعر جلال الدين محمد البلخي أن المجتمع البشري بحاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى الفكر الرفيع لهذا الشاعر الشهير لأن المولوي لا يتعلق بقوم وزمان ومكان خاص.

وأضاف الرئيس أحمدي نجاد أن ذكرى المولوي ستبقى خالدة لأنه يؤمن بالله وحقيقة الكون ومتعلق بالبشرية جمعاء.

وأوضح أننا بحاجة اليوم إلى فكر المولوي لا سيما وأن الأفكار المادية المدمِّرة والثقافات الهدامة أخذت تستهدف اليوم أصالة البشرية وقيمها.

واعتبر أن الرومي هو أحد أكثر الشعراء خلودًا قائلاً: إن العديد من الفلاسفة الكبار قد برزوا لكن أيّاً منهم لم يستطع نشر المفاهيم المعمّقة والدقيقة بين عامة الناس كما فعل مولانا.

وأكد رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية أن اللغة الفارسية تملك طاقات هائلة تعتمد على الروح والفطرة والقضايا الإنسانية السامية وأن الإفادة من اللغة الفارسية هي السبب في خلود مولوي.

وأعرب عن شكره لجميع المتخصصين في شؤون مولوي لمشاركتهم في هذا الملتقى الدولي.

عالمية مولانا الرومي تتخطى الحدود واللغات

اشاد الدكتور غلام علي حداد عادل رئيس مجلس الشورى الإسلامي والأمين العام للمنتدى الدولي لتكريم جلال الدين الرومي المنعقد في طهران بشخصية هذا الحكيم والعارف الإيراني قائلاً: إن رسالة الرومي إلى العلماء الذين يبحثون عن نظام الكون والطبيعة وإلى كل الفنانين وعشاق الجمال والعظمة والإنسانية هي أن الإنسان متعلق بعالم أعلى من هذا الوجود، وأنه سيعود إلى ذلك يومًا ما.

وأكد رئيس مجلس الشورى الإسلامي بأن أبناء أفغانستان وطاجيكستان وتركيا وإيران يفخرون بأن مولانا الحكيم كان منهم، والمهم في الأمر أن تتقبلنا الروح السامية لهذا الحكيم وتعتبرنا جزءًا منها.

وأضاف الدكتور حداد عادل في مراسم افتتاح هذا الملتقى الدولي بأن عالمية آثار مولانا تتخطى الحدود الأرضية وتتفوق على الاختلافات والصراعات السياسية والأذواق الأدبية وتعدد الألسنة والألوان واللغات لأنه خاطب الفطرة الإنسانية، واستطاع أن يوصل

مفاهيم التوحيد والنبوة والمعاد والإمامة إلى الافاق البشرية. كما أكد الدكتور حداد عادل على دور هذا الشاعر في توطيد عرى التفاهم وأواصر العلاقات الثقافية بين الشعوب على مدى القرون الثمانية الماضية والقرون المقبلة ولا سيما بين الشعبين الإيراني والتركي.

مهرجان لتكريم ذكرى الشاعر الإيراني الكبير المولوي في طهران

أقيم في طهران مساء يوم السبت ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر مهرجان بعنوان «أمسية مع جلال الدين محمد بلخي» لمناسبة العام العالمي للشاعر الإيراني الكبير وذلك بحضور مندوبين عن منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة.

وحضر هذا المهرجان «تاين كوتشي» مسؤول مكتب اليونسكو في طهران وجمع من أساتذة العلم والأدب في البلاد.

وفي هذه المراسم تحدث الأديب والباحث القرآني حسين إلهي قُمشئي عن شخصية الشاعر المولوي، معتبراً إياه بأنه حامل رسالة الصداقة والسلام في جميع العالم.

وقرأ عدة أبيات من شعر مولانا مؤكداً أنه وبدراسة قصائد هذا الشاعر الكبير يمكن الاطلاع على العمق الإنساني والمعاني السامية الكامنة في هذه القصائد.

وأضاف هذا الأستاذ الجامعي المتخصص في حقل الثقافة والأدب، أننا وعبر بيان وكلام مولانا حول السلام العالمي، نصل إلى أفكار هذا العالم الكبير الذي أكد على أهمية استتباب السلام في العالم.

وتحدّث في هذه المراسم عدد من الأساتذة في حقل الثقافة والأدب ومن ضمنهم رئيس جمعية الحكمة والفلسفة الإيرانية غلام حسين أعواني والشاعر والأديب مصطفى بادكوبئي والأديب المتخصص في الأساطير والملاحم والأستاذ في جامعة العلامة طباطبائي ميرجلال كزازي وممثل إيران السابق في اليونسكو الدكتور أحمد جلالي.

دمشق تشهد ندوة لتكريم الشاعر الكبير جلال الدين الرومي

أقامت المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دمشق مساء الثلاثاء السابع من نوفمبر ٢٠٠٧ ندوة أدبية بعنوان «من قونية إلى الشام»، وذلك لمناسبة تخصيص اليونسكو هذا العام للشاعر الإيراني الكبير «مولانا جلال الدين الرومي»، وذلك بحضور حشد غفير من المثقفين والمتابعين.

وقدمت الدكتورة «عصمت إسماعيلي» وهي أستاذة إيرانية محاضرة في الجامعات السورية، في بداية الندوة دراسة بعنوان «جلال الدين الرومي في بلاد الشام، وصورة الشام في شعره»، تحدثت من خلالها عن حياته وسفره من قونية إلى الشام الذي جاء على مرحلتين؛ الأولى مع والده قبل ولعه بالعرفان حيث كان طفلاً، والثانية وهو شاب لينهل من علماء الشام وحلب.

وأشارت إلى أن سفره الثاني كان مقترنًا بالمفاجآت والعجائب حيث يمكن ملاحظة ذلك في بعض غزليات ديوانه الكبير، موضحة أن أسلوب ذكره لهذه المدينة وتركيباتها اللغوية يدل على أنه لم يكن يذكرها بشكل عابر او كسائح فقط، بل كانت تعبر لديه عن ذكرى جميلة حيث قدمت له ولادة جديدة وحياة أخرى.

وأشارت الباحثة الإيرانية إلى العلاقة الوطيدة التي كانت تربط مولانا مع أستاذه «شمس تبريزي»، وقالت: «في مقالات شمس دائمًا يتم الحديث عن العلاقة الوطيدة بين هذين الإنسانين الساميين وعن الحب والعشق الرهيب الذي يلفهما وعن محبة شمس لمولانا».

كما تحدثت إسماعيلي عن المرارة التي عانى منها مولانا على فراق أستاذه التبريزي نتيجة تصرفات المريدين والمتعصبين والمغمورين والحساد إلى أن عادا واجتمعا.

وأشارت أيضًا إلى لقاءات مولانا في دمشق مع «محيي الدين بن عربي» صاحب العرفان النظري، حيث شجع مولانا على الإقامة في دمشق بعد وفاة والده.

ولفتت إلى حياة مولانا في مدينة حلب وإقامته في مدرسة «حلاويه» والتعاليم التي كان يتلقاها هناك والتي شملت، تفسير القرآن، والحديث، والفقه، واللغة، والأدب العربي.

وذكرت، أنه وبعد إتمام مولانا تعليمه في حلب عاد إلى دمشق واستقر فيها لمدة أربع سنوات أو سبع كما نقل عنه، أكمل فيها دراسته للعلوم النقلية والعقلية.

وقالت: إن الكتّاب يشيرون إلى أن مولانا اشتهر منذ تلك الفترة، وأنه عندما دخل دمشق كان في استقباله كبار وجهاء البلد ورجالاته واستقر في المدرسة «المقدسية».

بدوره تحدث الباحث والمفكر السوري المختص في شؤون الأدب الفارسي الدكتور «عيسى العاكوب»، عن عظمة مولانا، وقال: إن السلاطين في القرن التاسع كانوا يقولون «إنه لم يكن نبيّاً ولكنه أوتي كتابًا»، موضحًا، أن ثقافة مولانا ثقافة أصيلة ومصدرها هو رأس النبع المتمثل بمصادر الثقافة الإسلامية.

وقال: «إن مولانا كان مثقفًا جدًا في عصره حيث استوعب كل الثقافات التي كانت في ذلك العصر»، موضحًا أنه كان شخصية كبيرة حيث كان يعلِّم السلاطين ويأمرهم بالعطف على الفقراء والمساكين.

ترجمة مختارات من كتاب «المثنوي المعنوي» للشاعر المولوي للغة الصربية

تزامنا مع الذكرى السنوية الـ٨٠٠ لولادة الشاعر الإيراني الكبير «مولانا جلال الدين البلخي الرومي» تم في معرض بلغراد الدولي الثاني والخمسين للكتاب عرض ترجمة لمختارات من كتاب «المثنوي المعنوي» للغة الصربية، حيث حظي بترحيب رواد المعرض.

وعرض هذا الكتاب عصر السبت ٢٨ أكتوبر ٢٠٠٧ في المعرض بحضور الشاعر الصربي والمترجم لهذا الكتاب وعدد من أساتذة الاستشراق وجمع من المحبين للثقافة والأدب الفارسي ورواد المعرض.

وفي هذه المراسم تحدث المستشرق والعميد السابق لكلية الآداب في جامعة بلغراد البروفيسور راده بوزوفيتش، عن المكانة الرفيعة للشاعر الإيراني الشهير مولوي في الأدب

العالمي، وأشاد بجهود القائمين على ترجمة وإعداد هذا النتاج الأدبي باللغة الصربية، داعيًا لبذل المزيد من الجهد للتعريف بالثقافة والأدب الإيراني الثرِّ للشعب الصربي.

وقد تمت ترجمة هذا النتاج الأدبي بجهود المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية في بلغراد في هذا العام الذي سمي بعام المولوي من قبل منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (يونسكو).

والترجمة الصربية لكتاب «مثنوي معنوي» أخذت عن نسخة «كولمن باركس» المترجم الإنجليزي الشهير.

ومترجم الكتاب للغة الصربية نثرًا هو الكساندر جوسيتش في ما قام الكساندر ليوبيشا بترجمته نظمًا، والكتاب المذكور هو مختارات من دفاتر ديوان «المثنوي المعنوي» الستة وغزل من ديوان «شمس التبريزي».

المثنوى باللغة اليونانية

أكدت الباحثة اليونانية لينا ميستاكيدو: إن العالم المعاصر بحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى توجيهات وإرشادات وأفكار الشاعر والفيلسوف والعارف الإيراني الكبير مولانا جلال الدين الرومي. وأوضحت هذه الباحثة اليونانية أنها ترجمت مختارات من قصائد المولوي المسماة بالمثنوي إلى اللغة اليونانية.

وأوضحت: بما أن منظمة اليونسكو سمَّت هذا العام بعام مولانا، يمكن تفهم عظمة وشموخ هذا العارف والعالم والمفكر الكبير الذي يؤدي إلى تحول الإنسان من خلال قراءة مؤلفاته وقصائده.

بنغلادش تحتفل بمئوية الرومي الثامنة

وتزامنًا مع هذه الذكرى أقيم في صالة «صوفيا كمال» في المتحف الوطني في العاصمة البنغالية دكا ملتقى تحت عنوان «عرفان مولوي، حاجة العصر» وذلك بحضور

السفير الإيراني في دكا وجمع من المسؤولين والشخصيات والمهتمين بالدراسات المتعلقة بشعر مولوي في هذا البلد.

وقد حضر الملتقى حشد من الطلبة والأساتذة الجامعيين وطلبة اللغة الفارسية، والمثقفين والمفكرين البنغاليين. وتحدث الخطباء في هذا الملتقى عن أبعاد شخصية الشاعر المولوي كأحد أكبر الشعراء والعرفاء في إيران والعالم الإسلامي. وأشار السفير الإيراني في كلمة له في هذا الملتقى إلى أن إيران مهد للعرفان والفلسفة في العالم مؤكدًا أن إيران قدمت مشاهير عظامًا في العرفان والفلسفة لعالم البشرية.

وأضاف: إن الكثير من هؤلاء العظماء يتمتعون بشهرة عالمية وأن رؤاهم وأفكارهم ورغم مضي عشرات القرون ما زالت تُدرَّس في الجامعات العريقة في أوروبا وأمريكا. وتطرق إلى سيرة مقتضبة لحياة مولوي المليئة بالمنعطفات، واعتبره رمزًا للعرفان والفلسفة وقال: إنه وخلافًا للرياضة والزهد والابتعاد عن البشر وإلحاق الأذى بالنفس، فإن العرفان يبحث عن الله في الحياة والتعايش السلمي الإنساني والمحبة والتسامح والتفاني.

من جانبه أشار رئيس جامعة دكا (اس. أم. فايض) في كلمة له إلى تسمية العام الجاري بعام الشاعر مولوي من قبل منظمة الأمم المتحدة وإجراءات اليونسكو لإحياء ذكرى هذا الشاعر والفيلسوف الكبير لإيران والعالم الإسلامي وقال: إن قصائد هذا الشاعر الكبير هي اليوم على لسان كل عارف وفيلسوف. ونحن بصفتنا نخبة مثقفة وجامعية فإن من مسؤوليتنا تسليط المزيد من الأضواء على هذا الشاعر والعارف والفيلسوف الكبير وتقديمه لجيل الشباب.

كما تحدث محمد رضا الكريم رئيس «جمعية العلامّة رومي» في بنغلادش مشيرًا إلى الإجراءات التي اتخذتها هذه الجمعية للتعريف بالشاعر مولوي للمجتمع البنغالي.

والمهمة الرئيسية لهذه الجمعية التي تضم مهتمين بالدراسات المتعلقة بمولوي وأساتذة جامعات ومفكرين بنغاليين، هي التعريف بهذا الشاعر وأبعاد شخصيته للمجتمع البنغالي ولا سيما جيل الشباب والجامعيين.

ترميم مدرسة والد جلال الدين في بلخ بأفغانستان

تخليداً لذكرى المولوي أقرت الحكومة الأفغانية ترميم المدرسة التي كان يلقي فيها بهاء الدين والد مولانا جلال الدين محاضراته في مدينة بلخ والتي تقع ضمن الحدود الأفغانية.

وقد تعرضت هذه المدرسة للتخريب وأتى الزمان على أجزاء منها، حيث وافقت السلطات المحلية الأفغانية على ترميمها وإعادة بناء هذا الصرح العلمي والمكان الأثري تخليداً لهذا الشاعر العملاق.

✱✱✱✱

الرومي في مرآة التاريخ

ولد جلال الدين الرومي في مدينة بلخ التاريخية العريقة في رحاب السهول الخصبة المروية من روافد نهر جيحون وهي اليوم في شمال شرقي أفغانستان بجوار مدينة مزار شريف سنة ٦٠٤ للهجرة/ ١٢٠٧ ميلادية في وقت كانت هذه المدينة واحدة من مراكز الثقافة الإسلامية، وكان والده محمد بن الحسين الخطيبي المعروف باسم «بهاء الدين» متكلمًا ومدرسًا وواعظًا إلهيّاً شهيرًا ومرجعًا في أمور الفتوى الإسلامية في بلده حيث يلقب بـ «سلطان العلماء»، وأحد المقربين من السلطان محمد خوارزم شاه حيث كان يعمل بالإرشاد والوعظ وتدريس الشريعة والحديث والتفسير، وينتمي روحيّاً إلى مدرسة أحمد الغزالي وقد احتشد الناس حوله لتلقي دروسه وسماع موعظاته وعلى رأسهم العالم والمفسر الكبير فخرالدين الرازي. وهناك من يرى أن أسرة بهاء الدين تنتمي إلى أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) الخليفة الأول في الإسلام، مع أنه لم يدَّعِ في أي من كتبه وقصائده هذا النسب مما يصعب تصديقه.

عائلة الرومي تشد الرحال

ولم تمض فترة طويلة بعد ولادة جلال الدين حتى حدثت فجوة بين والده وبين السلطان الخوارزمي عندما نجح بعض الشيوخ في زرع بذور الكراهية بين بهاء الدين وبين حاكم المدينة، وبعد أن اتضح تهديد المغول القادم من آسيا الوسطى وهو يقترب كالسيل الجارف الزاحف من الشرق، يحرق المدن ويدمر القرى ويقضي على كل مظاهر الحياة والمعاش، آثر بهاء الدين التوجه إلى الديار المقدسة لأداء فريضة الحج وترك بلده مع أسرته وأتباعه حتى تستقر الأمور، فخرج متوجهًا باتجاه الغرب في رحلة طويلة توقفت

أثناء طريقها في بعض المحطات من حواضر العالم الإسلامي مثل خراسان، وفي نيسابور حيث التقى هناك بالشيخ فريدالدين العطار الشاعر العرفاني الكبير الذي أحسن استقبالهم وأهدى نسخة من أحد كتبه «أسرار نامه» إلى جلال الدين متنبئًا بمكانته العلمية ومبشرًا أسرته بأن هذا الفتى سيكون له شأن عظيم حيث أوصى أباه قائلاً: «بجِّل هذا الطفل، فسوف يلقي ضرمة في القلوب المحروقة في العالم بنَفَسه المحموم».

وبعد إقامة في المدرسة المستنصرية ببغداد ثم الكوفة توجه لأداء مناسك الحج في مكة وزيارة المدينة المنورة ومنها انطلق إلى بيت المقدس ثم إلى دمشق قاعدة الثقافة، ومكث في حلب مشاركًا في محاضرات المؤرخ الشهير كمال الدين بن العديم حيث يشير في إحدى قصص المثنوي إلى احتفالات سكان الحاضرة الشمالية السورية بأيام عاشوراء وذكرى استشهاد الإمام الحسين (رضي الله عنه) إبان فترة حكم الحمدانيين هناك.

وفي منتصف عشرينيات القرن الثالث عشر الميلادي بينما كان «مولانا» في الحادية والعشرين من عمره وصلت الأسرة إلى أواسط الأناضول وهي بلاد الروم آنذاك – ومن هنا جاءت تسميته بالرومي – وقد استقرت في مدينة لارنده حيث توفيت والدة جلال الدين ودفنت في هذه المدينة التي أنشأ أهلها مسجدًا صغيرًا تكريمًا لمنزلتها.

جلال الدين في قونية

وفي هذه المدينة تزوج جلال الدين بجوهر خاتون وهي فتاة من سمرقند لينجب منها ابنه سلطان الذي قدر له أن يكون الشارح وكاتب السيرة الأكثر إخلاصًا لوالده والخليفة الثاني له.

وفي قونية عاصمة السلاجقة كان السلطان علاء الدين كيقباذ قد استقطب خيرة العلماء والعرفاء من أرجاء المعمورة حيث بنى مسجدًا فخمًا في وسط المدينة قريبًا من القلعة مطلاً على السهول، يتسع لأربعة آلاف مُصَلٍ وهو المكان الذي استقر فيه بهاء الدين وأسرته حوالي سنة ١٢٢٨م وبدأ نشاطاته العلمية والوعظية.

لم تمض سوى سنتين حتى توفي بهاء الدين المتكلم الإلهي والعالم الفقيه ليُعَيَّن ابنه جلال الدين خليفة له بعد أن أحس بالغربة واكتنفه الحزن وخيبة الأمل، فتولى التدريس في أربع مدارس بقونية بعد أن اشتهر بالبراعة في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية، وكان مولعًا بالشعر العربي ولاسيما أشعار المتنبي.

وبعد فترة وجيزة من وفاة والده قدمت من بلخ شخصية فريدة ملأت الفراغ الذي تركه فقدان الوالد وسلّت عن نفس مولانا وكانت تلك الشخصية صديق والده الحميم برهان الدين المحقق الترمذي وهو أحد كبار العلماء ومن مريدي والد جلال الدين المخلصين فتتلمذ جلال الدين على يديه لبضع سنين ثم سافر بناء على نصيحته إلى حلب ودمشق التي أقام فيها عدة سنوات.

وبعد وفاة برهان الدين المحقق الذي جعل من مولانا جلال الدين عملاقًا لا يضاهى في العلوم العقلية والتجريبية، حدثت نقطة التحول الكبرى في حياة جلال الدين إذ التقى (بشمس تبريز) حيث بزغت شمس ساطعة في أفقه ولتختار يد القدر لجلال الدين مجالاً آخر غير هذا الطريق الذي سلكه.

الدرويش الجوال «محمد بن علي بن ملك دار» المشهور بشمس الدين التبريزي ذلك الصوفي المغمور كان تلك الشمس التي غيّرت سيرة جلال الدين كفقيه في علوم الدين لتجعل منه عارفًا غارقًا في التصوف حتى أذنيه، التصوف الذي لم ينسه ثقافته الدينية الشرعية التي نشأ عليها.

الشمس تشرق على مولانا

ففي ظهيرة يوم ٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٢٤٤ الموافق لشهر جمادى الآخرة من عام ٦٤٢ هجرية، بينما كان مولانا عائدًا من مدرسته إلى داره محاطًا بموكب من التلامذة والمدرسين وجمع غفير من الناس، تقدم هذا الدرويش الغريب إلى الراكب المحتفى به ماسكًا زمام بغله موقفًا إياه في قارعة الطريق ليطرح عليه السؤال التالي:

ما المقصود من الرياضيات والعلوم؟

فأجاب جلال الدين: الاطلاع على آداب الشرع.

قال شمس في هدوء وثقة: لا، بل الوصول إلى المعلوم. وأنشد بيتًا للشاعر الحكيم سنائي الغزنوي يقول فيه:

«إن العلم إذا لم يجردك عن نفسك فالجهل خير منه».

بعد هذا اللقاء العارض بدأت المناقشات الفلسفية في دار «مولانا» بينه وبين «شمس» وسرعان ما أصبحا في تلازم دائم.

هذا التمازج والتماهي الفكري أدى إلى انسحاب جلال الدين من غمار المجتمع ومشكلاته ليغلق باب بيته بمفتاح الحب الإلهي وينأى بنفسه عن الأصدقاء والتلاميذ ويتفرغ لهذه الشخصية الغامضة التي اتسمت بالحماس الروحي العظيم. لقد رأى فيها نور السعادة الأبدية، واعتقد بها الكمال، قال مرة بعد فراق شمس:

«إن شمس التبريزي هو الذي أراني طريق الحقيقة
وهو الذي أدين له في إيماني ويقيني».

وقال مرة أخرى هذا البيت بالفارسية:

«مولوي هركز نشد مولاى روم
تاغلام شمس تبريزي نشد»

أي: لم يصبح جلال الدين مولى الروم، حتى أن أصبح خادمًا لشمس تبريز.

أحس شمس بتأثيره في مريده الجديد ولمس شعور تلاميذ الرومي نحوه، أولئك الذين راعهم منه ما كان من انصراف معلمهم إليه، فأخذ شمس يعد العدة للرحيل عن هذا الجو الناجم عن حسد الأعداء وكثرة القيل والقال.

الشمس تُفارق الرومي

علم الرومي بما يجول في خاطر مرشده، وعزّ عليه أن يفارقه ولما يمض على اللقاء الأول إلا أشهر معدودات لا تتجاوز السنة والنصف، فنظم الأشعار الرقيقة يلتمس فيها عدول مرشده عن الابتعاد عنه ويحثه على البقاء حيث الصفاء، ولكن شمس يرحل.

تنقل المرشد من بلد إلى بلد، والرومي يحاول معرفة مكانه فلا يصل إليه، إلى أن استقر به النوى في دمشق. تدهورت معنويات مولانا وبعث بابنه سلطان إلى الشام راجيًا وبإلحاح أن يعود شمس إلى قونية، فركب شمس حصان ابن جلال الدين الذي رافقه مشيًا على الأقدام طيلة الطريق، بينما بقية الركب راكبون.

وفي ١٨ أيار/ مايو ١٢٤٧م وقف مولانا على هضبات قونية ينتظر طلوع الشمس، وليبدأ الحوار والنقاش من جديد ويقطع جلال الدين علاقاته مع من ضلعوا في مؤامرة إبعاد شمس.

رحب تلاميذ وعشاق جلال الدين بشمس وأيقنوا بأن هناك حكمة وراء اختلاء جلال الدين بشمس وتفرغه له وابتعاده عنهم إلا أن هذا الصبر لم يدم طويلاً بل شمروا عن سواعدهم لطرد هذا «الساحر» الذي سحر مرشدهم بكلامه وحرمهم من مواعظه وخطبه.

أجمع مريدو الرومي أمرهم على معاداة شمس والكيد له ليتحقق الإبعاد النهائي لشمس جراء مكيدة، ويضطر إلى الاختفاء مرة أخرى، ويجدُّ الرومي في البحث عنه ولكن دون جدوى حيث غربت الشمس، وأنى له أن يلقاها بعد الغروب.

ارتدى مولانا جبة رمادية اللون ولف نفسه بعباءة سوداء وكرس حياته لحلقات الدرس ومجالس القضاء والفتيا.

عاش الرومي بعد اختفاء مرشده ومعلمه وقدوته قرابة سبعة وعشرين عامًا كان فيها النجم المتلألئ وسط حلقات الذكر مستغرقًا في الوجد ومن حوله المريدون ينهلون منه علمًا صافيا وسلوكًا صادقًا، ويرون فيه المرشد الذي شرح الله له صدره.

لقد ذهب «مولانا» إلى دمشق علَّه يجد شمسًا هناك، لكنه لم يجده، بل وجده في نفسه، وحاول إعادة اكتشافه في قلبه، وصار يدور في مدرسته وهو هيمان، ويئن مرسلاً زفراته الحارة ويقول الشعر الرقيق:

أيها الباحث عنه، إن تراه أو تراني، فكلا الأمرين سواء
فأنا يا أيها الباحث هو

وقال مرة هاتفًا من أعماق قلبه، عندما كثرت الأقوال التي تشير إلى مكانه:

قدمت عباءتي وعمامتي من أجل كذبة
لكن روحي أقدمها من أجل الحقيقة

وكتب ابنه عنه أنه وجد شمسًا في أعماق قلبه، وفي ذاته يشع كالقمر.

نهاية شمس كما البداية كانت غامضة بعد أن تعرض للتهديد بالقتل فكيف اختفى وإلى أين رحل وما حل به؟ لا أحد يدري. توالت الأيام وبمرورها خفَّت وطأة الأسى عن قلب «مولانا».

شمس جديدة تبزغ في أفق جلال الدين

ومن قرى ضواحي قونية بزغت شمس جديدة في أفق جلال الدين تجلَّت كأنها كنز روحي عظيم وهي «صلاح الدين زركوب» الصائغ الذي اختاره جلال الدين خليفة له مع أنه لم يكن وصل بعد إلى مراحل العرفان العليا، لكن الكنز الذي تجلَّى لهذا الصائغ في وجه مولانا كان أغلى من الذهب الذي يكتنزه في متجره، فترك كل شيء وتجرد لمولانا الذي أعجب بنقاء سريرته وخلوصه وأنشد له مقطوعات من الغزل، واقترح على ابنه سلطان أن يتزوج ابنة صلاح الدين، لكن الحزن لم يلبث أن استولى على قلب جلال الدين بعد وفاة هذا الصائغ، وفاض الحزن غزلاً رقيقًا.

لم تترك يد القدر شاعرنا وحيدًا بل هيأت له بزوغ شمس جديدة بعد عشر سنوات قضاها مع صلاح الدين الذي اعتبر موته عرسًا تتحرر فيه الروح من سجنها وقفصها لتنطلق إلى بارئها راضية مرضية.

حسام الدين حسن شخصية كبرى كان لها أكبر الأثر في الحياة الأدبية والمعنوية لمولانا وكان له عونًا في إظهار إنتاجه الضخم «المثنوي» إلى حيز الوجود.

في حياة مولانا أربع شخصيات كبرى ساهمت في تكوين موهبته وتفتحها فضلاً عن والده وهي بحسب الترتيب الزماني: برهان الدين الترمذي الذي أخذ على عاتقه تربية مولانا الشاب وإكمال معارفه، ثم شمس الدين التبريزي الذي وضع مولانا في أعلى قمم

الحب الإلهي حيث كان عارفًا ملتهبًا بنار العشق، تلاه صلاح الدين الذي طور هذا الحب وأنضجه وكان حسام الدين الذي ركز جوهر هذا الحب في ستة مجلدات ضخمة فلعب دورًا في تأليف (المثنوي) ذلك الإسهام الضخم في مجال الأدب والعرفان.

ديوان المثنوي يرى النور

إن سبب إنشاء المثنوي هو أن تلاميذ ومريدي خانقاه ومدرسة حسام الدين كانوا يقبلون على قراءة حديقة الحقيقة للسنائي الغزنوي ومنطق الطير لفريد الدين العطار فكان حسام الدين يرى أن هذه القصائد لم تعد تشفي غليل الناس، وأن قصائد الرومي أرقى وأسمى من ذلك فبدأ يبحث عن فرصة لملء هذا الفراغ، فطرح هذا الموضوع على مولانا الذي استخرج من عمامته أوراقًا ولفافات تحتوي على ١٨ بيتًا شكلت مقدمة ديوان المثنوي، ثم بعد ذلك أخذ مولانا ينظم القصائد ويعكف حسام الدين على تحريرها، ومتى انتهى أحد الدفاتر كان حسام الدين يقرأه على مولانا لينقّح ما يحتاج إلى تنقيح. وبعد وفاة جلال الدين الرومي تربع حسام الدين على كرسي أستاذه مدة ١١ سنة إلى أن توفاه الله عام ٦٨٣ هجرية.

لم يكن اختيار جلال الدين لهؤلاء الرجال ليتم إلا للمجانسة بين الخواطر والأرواح حيث قال: «إن الحب الذي يقوم على المجانسة لا تعقبه ندامة في الدنيا ولا في الآخرة فهذه المجانسة هي التي أوجدت الإيمان عند الصحابة وجذبت النفوس إلى الرسول الأكرم (ﷺ) وإليها يرجع الفضل في إيمان كثير من السابقين الأولين».

الشرارة التي أضاءت مصباح الرومي

شمس التبريزي كان الحقيقة الفعالة في التحول الروحي عند جلال الدين وكان الشرارة التي أضاءت مصباحه، كانت زجاجة المصباح صقيلة ونظيفة وزيته يضيء ولو لم تمسسه نار ولا ينقصه سوى الإشعال وكانت الشعلة بيد شمس.

إن الحرارة التي بعثها ذلك الدرويش الغريب في روح مولانا، ارتقت به بسرعة البرق إلى القمم العالية، بعد أن قام برهان الدين بوضع النقاط على الحروف، وهيأ لمجيء شمس

وأرسى الأسس وصفّى الزيت وصقل الزجاجة ليشعل شمس الحرارة ويتوهج المصباح الذي انبهر شمس من نوره وطاف حوله حتى أحرق نفسه.

إن ظاهرة الالتحام القوي بين الرومي وشمس مثلت أعمق الروابط بين تلميذ وأستاذ. مريد مثقف رأى الإنسان الكامل في شخص أستاذه البسيط، فانتقل فجأة من التدريس إلى الشعر – وتوقدت قريحته حيث نظم بعد رحيل أستاذه ديوانًا فارسيّاً ضخمًا هو ديوان شمس تبريز.

الرومي يدافع عن كرامة الإنسان

لقد دافع جلال الدين عن كرامة الإنسان حيث يرى الإنسان هو الخليفة في الأرض والمخلوق الأكثر أهمية في الكون، اكتسب هذه الرتبة من قبوله حمل الأمانة فتفجَّرت أمامه آلاف المعارف من كل علم وفن، تلك المعارف التي هي أوسع من العلوم الظاهرة وأعمق من الحروف المكتوبة. إنه يدعو الإنسان للرجوع إلى أصله حتى لا تحجبه المادة عن إدراك الحقيقة. القلب عند مولانا هو مركز المعرفة ومحل الإيمان والتدبر لذا على الإنسان الخلاص من حجاب الشهوة والهوى والدعوة للعمل والكسب بعيدًا عن التنسك.

قدّم الرومي رسالته إلى الجنس البشري بأكمله مشيرًا إلى الحب باعتباره المرشد الأعظم للطريق الروحي فالحب هو طريق النبي الأكرم (ﷺ) ولا حياة بلا حب، وأن تحب يعني أن تحيا، لقد ذاب شخصيّاً في محيط الوجود الإلهي كما يذوب السكر في الماء، وعدّ نفسه روحًا تحترق حتى الجمر في أتون نشوة الحب الإلهي، واحتفر ذلك الهيام الروحي ثلمًا عميقًا في قلبه.

لقد كان الحب هو المحور الأساس في عرفانه، الحب الذي يتوجه إلى ذات الله فقط وإليه وحده حيث يقول: «إن كل ما في العالم من مال وبنين ولباس مطلوب لغيره لا لذاته... لكن المطلوب لذاته لا لغيره هو الحق جل جلاله.. وعندما تصل إليه، تصل إلى كل ما

تطلب، ولن تمضي من هناك ثانية».

كان ينظر إلى الوجود نظرة عرفانية ويعتبر هذا العالم حلمًا تجسّد في الحديث النبوي الشريف «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» حيث يقول:

الدنيا لا شيء، ونحن لا شيء
خيال ونوم ونحن حيارى

الحياة تجوال في الحلم

الحياة عنده مثل التجوال في الحلم، والخلق أبدعه الباري سبحانه من العدم والعدم كالخزانة دعا الله الخلق ليخرجوا منها كل حسب زمانه ومكانه المقدر له بدافع الحب منة من الله وفضلاً.

وأدخل جلال الدين السماع كوسيلة لاستدعاء الحضور الإلهي في حلقات الدوران، أو بعبارة أخرى، إحساس الإنسان بعودته الشعورية إلى أصله، تلك العودة التي تبدو واضحة في افتتاحية المثنوي وأنشودة الناي، وبالسماع تذكير الإنسان بيوم الميثاق، وحالته السماوية السابقة. فالسماع يمنح الراحة للخلق والسكينة للروح باستمالتها إلى نوع من الحرية وإطلاقها من سجن الماء والطين.

يعتبر الحركات الدورانية رمزًا لحركة الوجود وتلقي الإلهامات الإلهية وبثها بين الناس، فكل حركة في الكون هي رقص ودوران، وتمثل الحركة الدورانية المحورية حركة الحياة وعندما يبذل العارف نفسه وهو في حالة الدوران فإنه يكون مندمجًا في الحياة الإلهية، مصدر كل حركة في الوجود.

الحب الإلهي أقصى الغايات الروحية

واعتقد مولانا بضرورة التخلي عن المتاع الدنيوي الزائل والجشع والشهرة والشهوات والشرور والنفاق، فالكَيِّس الفطن بإمكانه بلوغ حقيقة الحق والجمال والحصول على سلام العقل الحقيقي وبلوغ هذا السلام العقلي يقتضي إرساء قواعد من الحب

الإلهي باعتباره أقصى الغايات الروحية لدى الإنسان، عن طريق المرشد الروحي، فينضح المريد الفطن ويتفتح كما تتفتح الزهرة. وأكد على ضرورة التخلي عن مهلكات النفس من شح وبخل وحقد وحسد، ودعا إلى الصفات الكريمة وحث على العمل والجهاد موجهًا سهام نقده للمتكبرين والمغرورين وحذر من اتباع المشعوذين والمجانين من أدعياء الكرامات كما وقف ضد الملحدين وأصحاب الفلسفات القديمة من دهريين وسفسطائيين وأصحاب الفوضوية الشعبية، منتقدًا الفلسفة وعلم الكلام، متصديًا للبدع ومفندًا آراء المعتزلة والمشبهة.

غروب شمس العرفان

في يوم من أيام الشتاء عام ١٢٧٣م غربت شمسان خلف جبال قونية كان أحدها شمس جلال الدين الرومي وبغروبها غادر ذلك النور العرفاني هذه العاجلة ليشرق من جديد في حياة الأبدية الأخروية. ليلة طالما كان ينتظرها ويصفها بأنها ليلة زفافه وليلة الاتحاد، حيث حقق كيانه الاتحاد مع الكيان الكوني واندمج في الحياة السرمدية، فكان موته إعادة لميلاده الروحي الذي طالما انتظره وطلبه. وفي حالة النزع الأخير توجه إلى ولده سلطان قائلاً:

لا تبحث عن قبرنا في التراب
إن قبرنا في قلوب العلماء

كما قال:

إن كنت مؤمنًا حلوًا
طاب الموت، وكان الموت مؤمنًا
وإن كنت كافرًا أو مرًا
كان موتًا كافرًا ومرًا

****

الرومي بالعربية.. ألف بيت

لم تنل المقطوعات العربية التي نظمها الرومي في باب الغزل، والتي يزيد عدد أبياتها عن الألف ما تستحق من الدراسة المنهجية المعمقة. وقد يكون مرد ذلك إلى أن شعره العربي ورد في ثنايا الألوف من مقطوعات الغزل الفارسية في ديوانه الكبير، فضاع في خضم «المثنوي» المترامي الأطراف حيث تجاوزت أبياته الأربعين ألفًا مما يعتبر أضخم مجموعة شعرية لشاعر منفرد في التراث العالمي على الإطلاق. وقد يكون السبب غفلة العرب عن الأدب القابع في خدود التراث الفارسي لا سيما وأن منظومة المثنوي قد طغت شهرتها بين العرب على آثاره الأخرى.

ومن خلال دراسة أشعار الرومي بالعربية نجد أنه لم يكن متمكنًا منها تمام التمكن بل كأنه كان يضع ما يفكر به بالفارسية في قالب عربي، أي كان ينظم شعرًا فارسيّاً بألفاظ عربية. ولعل السبب الذي دعا المولوي إلى النظم بالعربية هو حضوره في بيئة عربية حيث كان يرغب في نقل مشاعره وما يجيش بخاطره إلى المتلقي العربي الذي لا يفهم الفارسية. كما يمكن اعتبار الغزليات العربية الوجدانية للرومي «شاميات» تعكس فترة من حياته كان فيها هائمًا في ديار العرب يبحث عن منية فؤاده، فضلاً عن أن العربية لغة القرآن الكريم والحديث الشريف كانت تحتل مكانة خاصة لدى جلال الدين الذي كان يرى في الرسول الأكرم (ﷺ) تجليًا للحقيقة الإلهية التي هام في حبها، ولذلك صارت لغة المحبوب لغة محبوبة لايمكن أن تبقى بعيدة عن مشاعره، وإن نأت عن قريحته الشعرية.

«اقتلوني اقتلوني يا ثِقاتْ
إنَّ في قتلي حياةً في حياةْ
يا منيرَ الخد يا روحَ البقا
اجتذبْ روحي وجُدْ لي باللّقا

لي حبيب حُبه يشوي الحشا
لو يشا يمشي على عيني مشى»

هذه الأبيات ينشدها الرومي بالعربية متأثرًا بمنصور الحلاج ثم يخاطب نفسه مباشرة بالفارسية فيقول ما ترجمته:

«أنشد بالفارسية وإن كانت العربية أحسن
فللعشق مئة لسان ومئة لغة أخرى»

وبهذا البيت يصرح بأن العربية كلغة أفضل من الفارسية، إلا أنه حسب المفهوم العرفاني هناك للعشق عشرات اللغات الأخرى التي يمكن التعبير من خلالها.

الهوية العربية لغزليات الرومي

إن غزليات الرومي بالعربية تفتقر للهوية العربية إذا ما قورنت بمقاييس الشعر العربي وخصائصه وموازينه المعروفة في كتب الأدب والعروض والقافية حيث إن شعره يقوم على قواعد النظم الفارسي، فالمعروف أن الفرس عندما بدأوا بنظم الشعر الفارسي في العصور الإسلامية أخذوا البحور الخليلية بعدما أعادوا صياغتها وتركيبها بصورة تستوعب الكلام الفارسي وتنسجم مع مفرداته.

وعلى سبيل المثال لا الحصر نشير إلى المقطوعة التالية المنظومة على بحر الهزج السالم، وهو في الفارسية مثمن وليس مربعًا كما هي الحال في شعر العرب:

ألا يا ساقيًا إني لظمآن ومشتاقُ
أدر كأسًا ولا تُنكِر، فإن القوم قد ذاقوا
إذا ما شئت إسراري أدر كأسًا من النارِ
فأسكرني وسائلني: إلى مَن أنت مشتاقُ؟
أضاء العشقُ مصباحًا، فصار الليل إصباحًا
ومن أنواره انشقّت على الأحجار أحداقُ

فداءُ العشق أدوائي، ومُرُّ العشق حلوائي

وإني بين عُشاقٍ أُسَوَّقُ حيثما ساقوا..

كما أبدع الرومي في الملمعات التي يجمع فيها بين الأشطر الفارسية والعربية حيث تأتي الأقسام العربية كوحدة شعرية ذات معنى مما يوحي بأن شاعرنا قد نظم المقطوعة العربية ومن ثم لمعها بأبيات فارسية للزينة وندرج الأبيات العربية هنا:

نُثِرنا في ربيع الوصل بالوردْ

حنانينا، فنعم الزوج والفردْ

نخافُ العين ترمينا بسوءٍ

فيا داود! قدّر حلقة السّردْ

ألا يا ساقيًا! هات الحُمّيا

لتكفينا عناء الحر والبردْ

وأسكرنا بكاساتٍ عظامٍ

فإن السكر دَفْعُ الهمّ والحَرْد

وأعتِقنا بخمرٍ من همومٍ

وجازي همّنا بالدّفع والطّرد

****

العشق الإلهي عند الرومي

عاش الرومي في أعماق الحقيقة الأزلية التي أتى بها القرآن الكريم، واستلهم صوره المجازية من خلال آية قرآنية أولع بها الصوفية (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا في الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ) (فصلت/٥٣) وهي العبارة التي منحت إمكانيات لا محدودة لإدراك القوة الإلهية المبدعة.

والرمز الأكثر تأثيرًا عند الرومي بين صوره هو رمز الشمس، على أن التعبير القرآني «والضحى» هو الأكثر استخدامًا عند الشعراء الصوفية الأولون في إشارة إلى الوجه المشرق لنبي الإسلام (ﷺ) حيث يقدم مفتاحًا قرآنياً لهذا الرمز.

ولاشك في أن حياة الرومي كلها وجهتها العظمة الغامرة لله سبحانه التي جلّت نفسها للمسلم الحق في أبهى صورة في آية الكرسي «الله لا إله إلا هو الحي القيوم». المباحث الإلهية عند الرومي حوار متصل مع الله الحي الذي خلق العالم وهو قادر على أن يخلق في كل لحظة شيئًا جديدًا من العدم ولكن المخلوق يراد منه أن يعبد البارئ ويسبح بحمده (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ) (الإسراء/٤٤). وإن أسمى منزلة في الخلق وأكرم مرتبة تعطى للإنسان كما يقرر القرآن الكريم: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ) (الإسراء/٧٠) لأن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي وهب إمكانية الاختيار بين الخير والشر، وهو أعلى منزلة من كل البهائم والملائكة.

وإذا ما كان الإنسان هو التجلي الأسمى للقدرة الإلهية الخلاقة فإن نبي الإسلام يحتل مرتبة خاصة بين الناس، حسب ما جاء في محكم الكتاب (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (الأنبياء/١٠٧) وإن شخصيته المقدسة هي قلب إيمان كل مسلم.

المسار الإنساني نحو الحضرة الإلهية

السير الكلي للإنسان نحو الحضرة الإلهية يراه الرومي في صورة تقدم روحي متصل، سُلّم يوصل إلى السماء، لكن تقدمًا كهذا مستحيل دون تضحيات: الموت هو الشرط المسبق للحياة الأبدية، والهدم هو المقدمة لبناء جديد، وهذه التضحية في سبيل الظفر بدرجات أعلى تكون أمرًا مستحيلاً ما لم يكن العشق هو القوة الدافعة لهذا الحراك. وقد استخلص الرومي حقيقة أن حب الله يسبق حب الإنسان (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) (المائدة/٥٤). هذا الإحساس بالعشق المتبادل ومعرفة أن العشق هو حقّاً الشيء الوحيد الذي يهم في الحياة الكلية للخلق يشكلان أساس تفكير الرومي.

إن أسمى ممارسة لهذا الحب المتبادل بين الإنسان وخالقه تتبلور وتكمن في الدعاء وعندما يستجيب الإنسان للدعوة الإلهية (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ) (غافر/٦٠).

لقد أبصر الرومي العالم بضوء جديد، أينما ولّى وجهه تملّى آثار عظمة الله ولطفه مصغيًا إلى تسابيح المخلوقات طرّاً وقد ذكّر مريديه في أشعار لايمكن نسيانها بأن الحياة الصحيحة غير ممكنة إلا بالاستسلام للعشق.

شعر الرومي.. من خدمة أهل البلاد إلى خدمة أهل التقوى

شهد القرن السابع الهجري تغييرات أساسية كبرى في مسيرة الشعر الفارسي، فهذا الشعر الذي كان مسخرًا لخدمة أهل البلاط أخذ يتجه نحو الفئات الشعبية متحليًا بصبغة عرفانية خاصة جعلته يرتقي على صعيد التربية والتعليم إلى تأدية دور فعال وأساسي في بناء المجتمع، وكان جلال الدين الرومي من جملة كبار المبدعين الذي حولوا وجهة الشعر الفارسي في هذه المرحلة وارتادوا تخومًا جديدة في عرصات الشعر والأدب.

إن نظرتنا لمولانا يجب ألا تقتصر على كونه شاعرًا فحسب، بل إنه والكوكبة التي عاصرته من أمثال سعدي الشيرازي، كمال الدين إسماعيل والشيخ فخرالدين العراقي هم حكماء ومفكرون كبار أعملوا فكرهم في تجاوز الوجود الإنساني.

مولانا: إمام الشعر الفارسي

إن جلال الدين هو من أئمة الشعر الفارسي ومن أعلام الآداب العالمية، ويمكن القول من دون تحفظ أنه ليس بين شعراء الفارسية مثله من استطاع جمع الفصاحة والبلاغة والإبداع في القصيدة والغزل والرباعي والمثنوي، وإن أناشيده تعتبر مرآة مخلصة تعكس روح عصره في تجلياتها حيث شهد القرن السابع للهجرة أكثر أعاصير التاريخ خوفًا ورعبًا من خلال هجوم المغول والدمار الذي خلَّفوه.

إن قصائد الرومي مهيأة لإقامة فلسفة حياة عالمية تقوم في جوهرها ومبانيها على توفير أسباب الخير والفلاح للإنسان ودفع الشر عنه، وليست مطروحة لتغرقنا في التأملات الباطنية المعقدة وهذا ما يجعل قراءته واجبًا على كل مثقف ومفكر يطمح لحوار الحضارات وتلاقح الثقافات وتعايش الاديان.

****

الرومي في بلاد الغرب

عرفت أوروبا جلال الدين منذ أكثر من قرنين، فقد اكتشفه بعض سفرائها لدى الدولة العثمانية ومنهم المفكرون والمستشرقون وعلى رأسهم «فون هامر بورغشتال» الفرنسي، و«فردريك روكرت» الألماني والشاعر الشهير غوته، وكثير من المستشرقين منهم نيكلسون الانكليزي والمستشرقة الألمانية الراحلة «آن ماري شيمل».

ويصح في مولانا الرومي في أيامنا المعاصرة ما قيل في المتنبي قبل ألف عام أنه «مالئ الدنيا وشاغل الناس» حيث ظهرت في أوروبا في السنوات الأخيرة ولا سيما في فرنسا ترجمات لمختارات من آثاره ودراسات حول تراثه العرفاني الغزير والمميز لدى من صقلوا مرآة القلوب فتجلت فيها الأنوار الإلهية. ولعل أحد أسباب الإقبال المتزايد على قصائد الرومي في الغرب هو الخلاء الروحي والخواء المعنوي الذي يعاني منه الإنسان هناك ونجاح قصائد الرومي في إرواء هذا العطش بما تتضمنه من روحانية.

إن الإنسان المحبط الذي حجبت عنه علائق الدنيا آفاق الأمل في عالمه، يتوق إلى عالم بهي تبتدعه الروح وتنقله إليه، وقد وجد ضالته في قصائد الرومي.

والحالة في الولايات المتحدة الأمريكية أشد وأدهى حيث تلقفت الأجيال الشابة ترجمة الشاعر الأمريكي «كولمن باركس» Coleman Barks لمختارات من تراثه الفذ تحت عنوان: «The Essential Rumi» أي زبدة الرومي وأصبح هذا الكتاب من أكثر الكتب مبيعًا في أمريكا خلال عام ٢٠٠١ وهو شبه مفقود من الأسواق لكثرة الطلب عليه.

الرومي ينافس شعراء الحداثة الأمريكان

كيف استطاع شاعر من القرون الوسطى ينشد أبياته باللغة الفارسية أن ينافس شعراء الحداثة الأمريكان وتسجل قصائده نجاحًا جماهيريًا يتربع من خلاله على عرش امبراطورية الشعر الغربي الحديث إلى جانب أسماء لامعة ونجوم ساطعة حاز أغلبها على جوائز نوبل؟.

ما سر عروض الأزياء الأمريكية التي استضافت شعره كأسلوب تسويقي لملابسها الرومانسية، أو شركات الآلات الموسيقية التي قررت حفر أبيات من شعره على منتجاتها أو قيام مجموعة من نجوم الغناء الأمريكي بتسجيل مقاطع من شعره؟ فيليس ثيكل الكاتبة في مجلة «بابليشر ويكلي» الأدبية تجيب على هذا السؤال بقولها: إن جماهيرية الرومي في أمريكا تعود إلى ما نعانيه من ظمأ روحي شديد.

لقد وصلت البشرية في فتوحاتها العلمية والتكنولوجية إلى نتائج باهرة، سخّرت الأرض والفضاء وجعلت من العالم قرية كونية، ويسّرت للإنسان أسبابًا مدهشة لراحته وترفه إلا أنها عجزت عن إرواء روحه التي تنهد إلى ما وراء المادة، والتي لم يسبر الإنسان أبعادها وكنوزها فيطمئن إليها ويخلد إلى سكينتها التي تشيع فيه السعادة، وهذا هو ما دعا إليه مولانا جلال الدين من خلال غزلياته العرفانية المشتعلة وجدًا وشوقًا وعشقًا يفتح به أبواب السماء على مصاريعها.

لقد ضل الإنسان طريقه إذ حسب أن السعادة تقوم على السيطرة على ثروات الأرض وتسخيرها لمصلحته وتأمين العيش المرفه لبني جنسه، مهملاً الشعلة الكامنة في أعماقه والتي إذا مدها بزيت العرفان من زيتونة الروح الذي يضرم فيها نار العشق، سيرى ما لا تراه عين ويسمع ما لا تسمعه أذن، ويشهد ما لايخطر ببال بشر.

إن هذه الإمكانات والطاقات مخبوءة في أعماق كل منا، وما علينا سوى البحث عن الوسيلة لاكتشافها واقتفاء خطى هؤلاء العظماء الذين خرقوا أقطار المكان واختصروا مسيرة الزمان في لحظات عبقرية.

إن الحمى التي تنتاب أمريكا في الإقبال على مطالعة قصائد مولانا الرومي، وإقامة حصص دراسية متعددة في المدن الكبرى حول أدبه وشعره، واتساع دائرة تأثيره لتصل إلى ثقافات ألمانيا وبريطانيا وفرنسا حيث يغزو الرومي قلوب المحبين في الجامعات والمحافل الثقافية التي تنتشر بوتيرة سريعة وعجيبة، لاسيما في الإعلام وأوساط الفنانين، إن حمى الرومي بإمكانها أن تقتل الصفات الذميمة والعادات القبيحة والخواء الروحي السائد في الغرب وتشفي الإنسان الغربي من أمراضه النفسية التي يعاني منها.

✷✷✷✷

إبداعات جلال الدين الرومي ومؤلفاته

يعتبر مولانا الرومي ثريًّا متألقة في سماء الأدب العرفاني، استضاء شعره ببؤرة المعارف القرآنية والأحاديث النبوية النيرة، كما نبع من سجية وضاءة ونشأ من قلب طيب وضمير مضيء، فهو الذي أنار طريق الحقيقة للذين يستقصون الهداية ويتوخون الكمال طيلة القرون فحق له أن يصف نفسه قائلاً «إنه صقل الأرواح».

العلامة الإيراني الراحل بديع الزمان فروزانفر يشيد بكتاب المثنوي المعنوي بقوله: «إن هذا الكتاب يشتمل على حقائق حية ومضامين مليئة بالمعنويات التي تسير في طليعة القافلة لا في مؤخرها، ولم يستطع العالم بكشوفه الكثيرة أن يتجاوز آراءه، كما لم تقدر الحضارة الحديثة بهذا القدر الهائل من الرقي على سبقها. ستبقى هذه الحقائق حية منتصبة بلا ارتياب وتستمر جودة كلام هذا الماجد وجمال حديثه تتراءى في غزلياته العرفانية التي تشتمل على حماسة جذباته المنبثقة من العشق الإلهي».

ديوان المثنوي

والمثنوي ستة مجلدات باللغة الفارسية، يبحث موضوعات التصور الإسلامي عن الله والإنسان والكون والحياة. وصفه بعض الأدباء الإيرانيين بـ«قرآن الفارسية» لعظمة موضوعاته وغزارتها المعنوية. وفي إطار حوالي ٢٥ ألف بيت تناول الرومي أكثر من ٢٥٠ قصة، كثير منها على لسان الحيوان قام بتوظيفها لإيضاح أفكاره، ويحتوي على تفسير لبعض الآيات القرآنية الكريمة وللأحاديث النبوية الشريفة، حيث امتاز من الناحية الفنية بروعة الصور البيانية والمقدرة الفائقة في الحوار والموسيقى والحكم والأمثال.

وقد تأثر المئات من الشعراء والمفكرين ورجال الدعوة في العالم الإسلامي بقصائد جلال الدين وأطروحاته حيث كان مصدر إلهام لأجيال المستقبل، ولا تزال طريقته المولوية تستهوي أفئدة الكثير من الناس في بقاع العالم.

ومن أعظم من تأثر بالمثنوي وكَنَّ لصاحبه الاحترام والتبجيل هو الشاعر والمفكر العلامة محمد إقبال اللاهوري حيث قال:

وقد أذّنتُ في الحرم كالرومي
وتعلمتُ منه أسرار النفس
هو كان في عصر الفتنة القديمة
وكنتُ في عصر فتنة النفوس

ويجسّد إقبال تأثير الرومي الواضح على أفكاره بقوله:

صيّر الرومي طيني جوهرا
من غُباري شاد كونًا آخرا

المثنوي: الرائعة الخالدة

يعد المثنوي رائعة جلال الدين الرومي الخالدة، وقد نظمها لتكون بيانًا وشرحًا لمعاني القرآن الكريم ومقاصد الشريعة المطهَّرة، ليكون ذلك هدفًا إلى تربية الشخصية الإسلامية وبنائها، وزادًا لها في صراعه مع قوى الشر والجبروت، وعونًا لها على مقاومة شهوات النفس والتحكم في أهوائها.

يكشف المثنوي عن ثقافة الرومي الواسعة وقدرته في التعبير عن أفكاره بروح إنسانية سامية، تتضاءل إلى جوارها بعض الأعمال التي توصف بكونها من روائع الأعمال الأدبية.

شخوص المثنوي

استخدم مولانا الرومي في ديوان المثنوي المعنوي فن الحكاية بإتقان بارع وهو في حركته وتطوره وحوارات شخوصه لا يقل روعة عن بعض القصص المعاصر وتتميز الشخوص بأنها ثرية متنوعة في تساميها وعجزها ونفاقها ورياءها وحيرتها بين الأرض وما يربطها بها، وبين السماء وما يشدها إليها، كل ذلك في تدفق وانسياب غامر وعرض شائق وأسلوب جذاب أخّاذ ولغة متميزة.

وقد وصفت منظومة «المثنوي المعنوي» بأنها «قرآن العجم» لموسوعيتها وكثرة اقتباسها من القرآن الكريم والحديث النبوي والعلوم الإسلامية وعلوم الأوائل وللإبداع الشعري والقصصي والتربوي العرفاني الذي قدمه جلال الدين وما طرحه من أفكار وصور إبداعية مفعمة بحرارة العرفان والمعرفة في غزليات وأبيات هذه المنظومة الرائعة.

ديوان شمس تبريز

سيل غزير من العشق يتدفق وقد غمره زبد كثيف، أنشده مولانا في حالة من الهيام لفراق «شمس» موضوعه الحب الأبدي في نشوة متجسدة، وقد هام فيه هياماً لا يعرف الحدود. ويشتمل على غزليات صوفية فارسية، إضافة إلى ملمعات عربية وتركية ويونانية وقصائد وترجيعات، الأمر الذي يدل على أنه كان متعدد الثقافات، ويزيد مجموعه عن أربعين ألف بيت من الشعر منها ٣٣١٨ رباعية.

ديوان شمس تبريز أو الديوان الكبير هو أكبر ديوان تركه مولانا لعشاقه ومريديه يصور أروع حالات الهيام المعنوي والروحاني بين شخصيتين فريدتين قلَّما يجود الزمان بهما، لعلَّهما روحان اتحدتا لتخفيا في قالب جسمين نحيفين وعظميين، عشرات الآلاف من أبيات الغزل المشحون بالعشق الملتهب، ليس للعاشق والمعشوق وجود صوري وشكلي وعيني، فذؤابة الشعر والخال المنقوش على الوجنات والحاجب المقوس والطول المشوق

الفارع وقفزات الحبيب كالغزال استعارات يتوسل بها الشاعر معبرًا عما يجيش في خاطره بمستوى يفوق ما عبر عنه قيس بن الملوح لمعشوقته ليلى العامرية.

إنه تواصل معنوي وروحاني بين إنسانين في عصر التشرد والتدهور والانحطاط الذي تمخض عن فساد الزمان حيث كلاهما مهجّر يبحث عن هوية، تواصل تحقق في لحظة استثنائية التحم فيها خلالها العاشق والمعشوق والعشق ليصبحوا كتلة واحدة.

يسرد مولانا قصيدته ويختمها باسم شمس ليشتهر الديوان باسم ديوان شمس تبريز، إنها ولادة جديدة للرومي ولشمس معًا حيث تفتحت أمامهما آفاق عالم جديد انقذهما من البحث عن الهوية ومن الضياع والتشرد.

إنشاد هذه القصائد تزامن مع طلوع شمس في قونية، وبمجرد تركه لهذه المدينة على حين غرة، يشتعل لهيب الغزل ويستعر ويتضاعف حرقة وهيامًا، حتى يحرق قواعد اللغة وضوابط الشعر والبلاغة أحيانًا، ففي أجواء مضمخة بالسماع والعزف في محضر مولانا من يجرؤ على التفكير بمثل هذه الضوابط.

(شمس نامه) أو ديوان شمس طبع في إيران والهند مرات عديدة، ونقل قصائد مختارة منها إلى العربية الدكتور محمد السعيد جمال الدين مطبوعة في القاهرة تحت عنوان «قصائد مختارة من ديوان شمس تبريز لجلال الدين الرومي».

وفضلاً عن الغزليات فإن الديوان الكبير ضم رباعيات ومقطوعات شعرية، ومع أن معظم الغزليات مكرّسة لشمس، الدرويش الجوال التبريزي، إلا أن مولانا بعد أن فقد الأمل بلقاء شمس توجه إلى صلاح الدين زركوب وحسام الدين لينظم أبياتًا غزلية حولهما.

ولاشك بأن بديع الزمان فروزانفر هو أكبر باحث معاصر بذل النفس والنفيس ليجمع النصَّ الكامل لغزليات مولانا ويحققها بأسلوب أكاديمي ومنهجي لترى النور بواسطة جامعة طهران في عشرة مجلدات، مجموع الأبيات التي حققها وجمعها هذا العلامة الإيراني بلغ ٤٠٣٢٦ بيتًا منها ٣٦٣٦٠ بيت غزل ومقطوعة و١٩٨٣ رباعية.

رباعيات مولانا جلال الدين الرومي

جاء مجموع رباعيات مولانا الرومي في آخر ديوانه الكبير أو «كليات ديوان شمس تبريزي» وتبلغ عدتها في نشرة العلاّمة المرحوم بديع الزمان فروزانفر ألفًا وتسعمائة وثلاثًا وثمانين رباعية. ورباعيات مولانا من أولها إلى آخرها تتحدث عن رحلة الإنسان إلى الحق سبحانه وما يتقدم ذلك ويكتنفه ويعقبه. وطيف الموضوعات والفِكَر التي تعالجها هذه الرباعيات واسع جدّاً، يشمل آفاق التجربة الروحية الواسعة لمبدع مسلم قليل النظير في تاريخ الثقافة الإنسانية بَلْهَ الإسلامية. ويعز علينا، وعلى أي باحث، ضبطُ التجليات الدلالية الكثيرة المتباينة لهذه الرباعيات. والملمح العام البارز في هذه الرباعيات من جهة الموضوع هو حال العاشق مع المعشوق وما يكتنف الصلة بينهما من وصال وهجر، وقبول وصد، وغم واشتياق، وعلى الجملة كل ما يكتنف سير السالك في طريق الحق سبحانه.

والرسالة التي تحملها الرباعيات جميعًا هي عطف العِنان إلى فضل الدَّيّان سبحانه على الخلق، وجمال التسليم لمبدع كل جمال، وروعة التوجه إلى الواحد الأحد، الحبيب الحقيقي الأوحد، سبحانه.

وتضفي العبقرية الشعرية عند الشاعر الصوفي الكبير على كل ما يعبر عنه من مواجيد وأحوال أبعادًا غريبة وقشيبة، وألوانًا بديعة زاهية، وإشراقًا يملأ آفاق نفس المتلقي الذي تتجلّى له قدرة الصانع في المصنوع وحكمة الذي ما خلق شيئًا باطلاً، سبحانه.

وبرغم أن الطبيعة الفنية للرباعية تستلزم أن يكون الموضوع في كل رباعية مستقلاً مُنبتّاً عمّا سبقه وعمّا لحقه يأنس المتأمل أن الموجة الشعورية في بحر إبداع الشاعر المسلم جلال الدين الرومي كانت تمتد طويلاً لتشمل عددًا من الرباعيات، حرص الشاعر على أن يجمعها في أحيان كثيرة رباط من الشكل شبيه بالفاصلة القرآنية، وهذا الرباط الموحد بين عدد من الرباعيات كثيرًا ما يكون عبارةً خاصةً تأتي في مطلع عدد من الرباعيات المتوالية أو في أواخرها أو في أوساطها.

ويحدد شمس قيس الرازي في كتابه (المعجم في معايير أشعار العجم) الشروط الفنية التي يضعها الأقدمون للرّباعي، فيقول: «والرباعيّ بحكم أن بناءه على بيتين لا أكثر،

ينبغي أن يكون تركيب أجزائه صحيحاً، وقوافيه متمكنة، وألفاظه عذبة، ومعانيه لطيفة، وأن يخلو من الحشو والتجنيسات المتكررة وصور التقديم والتأخير القبيحة. وإن يصحب ذلك شيء من الصناعات المستحسنة والزينات البديعية المطبوعة، كالطباق اللطيف والتشبيه المستقيم والاستعارة الحسنة والتقابل الموزون والإيهام الحلو، يأتي أحسن وأجمل..».

فيه ما فيه

لم تقتصر نتاجات جلال الدين على ديوان المثنوي وديوان شمس تبريز، حيث جمع إجاباته على اسئلة طلابه خلال المحاضرات المختلفة ومذكراته في مجالس العرفاء وتقاريره حول أهم القضايا الأخلاقية والعرفانية جمعها في هذا السفر الهام وهو، شرح وتفسير الآيات الشريفة والأحاديث النبوية واستذكار للمحاور والموضوعات التي تناولها في المثنوي بشكل موسّع ومعمق.

والكتاب كما المثنوي مطعّم بحكايات وأمثال مذكورة بشكلها العفوي والبسيط المألوف في الحوارات اليومية إلا أنها في المثنوي مكتوبة بأسلوب شاعري ينمّ عن قدرة الشاعر وعبقريته، الأمر الذي يجعل فهم معاني بعض الأبيات صعباً.

ولا شك بأن تشابه المضامين المذكورة في هذا الكتاب مع المثنوي تعين الباحث والمحقق على فهم بعض المواضيع الغامضة الموجودة في الديوان. وفي هذا الكتاب ينقل جلال الدين مواضيع عن والده وعن برهان الدين المحقق وشمس تبريز وصلاح الدين زركوب ويستحضر ذكرياتهم.

ولا شك بأن مولانا لم يختر هذا الاسم للكتاب، وبتواضعه الجم لم يكن يعتبر هذا الكتاب عملاً مهمًا بل هو تعليقات وملاحظات كتبها ولده أو بعض طلابه الذين اعتادوا تدوين ما يقوله أستاذهم.

المكاتـــيب

من جملة المنثورات الفارسية التي أبدعها مولانا الرومي كتاب «المكاتيب» والذي نشر لأول مرة في اسطنبول عام ١٣٥٦ للهجرة تحت عنوان «مكتوبات مولانا جلال الدين» باهتمام العلامة التركي الدكتور فريدون نافذ وهو من أحفاد الرومي.

نقرأ في هذا الكتاب ١٤٤ رسالة أغلبها وصايا ورسائل شخصية بعثها الرومي لمعارفه ومريديه حول أمور الحياة يكشف عمق محتواها ومغزاها عن مكانة كاتبها، وقد استهل مولانا رسائله التي يخاطب بها وجهاء زمانه وأعلام عصره بعبارة «الله مفتّح الأبواب» أو «الله يجمع بيننا» ويبدأ كلامه بعبارات مسجّعة ومركزة لكن فحوى الرسالة مكتوب بسلاسة ودون تكلّف. وقد استند مولانا في معظم هذه الرسائل إلى آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية وبأبيات شعرية عربية أو فارسية.

المجالس السبعة

يشتمل الكتاب على سبع مواعظ دينية وخطب مدرسية تطرق إليها في سبعة مجالس وهي مكتوبة على الظاهر بواسطة طلابه وأتباعه. تم طبع المجالس بالتزامن مع المكاتيب في اسطنبول عام ١٣٥٦ باهتمام الدكتور فريدون نافذ ثم أعيد طبعه في جامعة طهران إلى جانب ديوان المثنوي.

وقد ترجم المجالس السبعة إلى اللغة العربية وقدّم لها الأستاذ الدكتور عيسى علي العاكوب رئيس قسم التاريخ بجامعة حلب واهتمت بطباعتها بحلَّة قشيبة في ١٦٠ صفحة مؤسسة دار الفكر بدمشق عام ٢٠٠٤ تحت عنوان «المجالس السبعة: آفاق جديدة ورائعة في الرمزية الإسلامية».

ويبدأ كل مجلس بمقدمة مسجَّعة باللغة العربية يعقبها دعاء ومناجاة ثم مدح الرسول الأكرم (ﷺ) بعبارات مطولة وبالعربية حيث يتناول بعدها حديثًا شريفًا يشرحه مستندًا إلى آيات الذكر الحكيم وروايات حول الأنبياء والأولياء مطعمة بقصص وحكايات دينية مناسبة.

الجدير بالذكر أن هذه المجالس تتعلق بالفترة التي سبقت لقاء مولانا بشمس تبريز حيث كان مدرسًا فقيهًا وواعظًا قديرًا وإمامًا للجمعة والجماعة، وهذه الدروس أغلب الظن جاءت خلال فترة تعلّقه ببرهان الدين المحقق حيث تنسجم مع الأيام التي تولى خلالها خلافة والده.

ويبدو أن المجلس الأول والثاني كانا قبيل وفاة والده حيث يدعو فيهما لوالده ووالدته وأستاذه بالخير والسداد.

****

الرومي في العالم العربي

تعرَّف العالم العربي ولاسيما رجال الفكر والأدب على جلال الدين الرومي لأول مرة من طبع ديوانه المثنوي في مطبعة بولاق بالقاهرة قبل مائة وسبع وخمسين سنة، لكن هذه المعرفة بدأت حينما قامت كلية الآداب بجامعة الملك فؤاد الأول بتعليم الفارسية ضمن موادها الدراسية وتضاعف هذا الاهتمام بعد إنشاء معهد اللغات الشرقية ثم إنشاء أقسام اللغات الشرقية وعلى رأسها الفارسية في الجامعات المصرية منذ النصف الثاني من القرن العشرين.

وعلاوة على كتاب الدكتور السباعي محمد السباعي أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة الذي نال خلاله رسالة الماجستير تحت عنوان «جلال الدين الرومي وكتابه فيه ما فيه»، نوقشت العديد من الرسائل الجامعية عن جلال الدين والمثنوي وكليات شمس تبريز وكانت استكمالاً لجهود بذلت منذ أوائل القرن العشرين حين ظهرت ترجمة للمثنوي تحت عنوان: «المنهج القوي» بقلم يوسف المولوي نقلها للعربية من خلال استيعابه للمقصود بتعبير مشوب بالعجمة حيث كان من مريدي الرومي وأتباع طريقته.

بعدها بادر عبدالوهاب عزام بجمع مختارات من المثنوي أصدرها نظمًا ونثرًا في كتاب بعنوان: «فصول من المثنوي» ليواصل الشاعر الكبير عبدالعزيز صاحب الجواهر ترجمة المثنوي في مجلدين كبيرين. ثم جاء محمد عبدالسلام كفافي الذي كرَّس حياته كلها لدراسة وترجمة المثنوي إلى اللغة العربية حيث تم طبع الجزأين الأولين من الديوان.

ثم جاء الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا (رحمه الله) ليقدم ترجمة كاملة للمثنوي بمجلداته الستة مع الشرح والتعليق تم طبعها في المجلس الأعلى للثقافة في أواخر القرن العشرين.

ويعتبر الأستاذ الدكتور فكتور الكك من أبرز الباحثين المعاصرين الذين كرَّسوا حياتهم لدراسة أعمال الرومي منذ أكثر من أربعين عامًا وهو الآن أستاذ دراسات عليا ممتاز في الحضارة العربية – الإيرانية المقارنة ورئيس مركز اللغة الفارسية وآدابها في الجامعة اللبنانية. والأستاذ الدكتور عيسى علي العاكوب رئيس قسم التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة حلب بذل النفس والنفيس من أجل تعريب قصائد الرومي وشرح أفكاره للجامعيين والأدباء العرب، كما عكف على ترجمة كتاب الشمس المنتصرة للأديبة الألمانية الراحلة آن ماري شيمل حيث نال جائزة أفضل كتاب في العالم الإسلامي من الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

المولوي في الجامعات العربية

وقد ساهمت كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية بجامعة قطر في تسليط الضوء على مولانا الرومي من خلال ندوة دولية أقامتها في فبراير ٢٠٠٣ برعاية الدكتور عبدالله الخليفي رئيس الجامعة حول تراث الرومي وعلاقته بالثقافة الشرقية والغربية.

وقد أكدت الندوة على ضرورة تعريف الأجيال المسلمة من طلاب وباحثين ومشتغلين في الحقل الثقافي والإعلامي العربي والإسلامي بواحد من أكبر شعراء العرفان الإسلامي.

وقد طالب المنتدون الأجلاء الذين هرعوا للمشاركة من قطر ولبنان ومصر وسوريا وإيران وتركيا وألمانيا بتشجيع الباحثين على دراسة أبعاد هذه الشخصية المبدعة وتقديم بحوث معمقة تتجاوز العموميات إلى الكشف عن مواطن الإبداع والتميز وإنشاء مؤسّسة علمية للترجمة من الفارسية إلى العربية وبالعكس، وتضمين المناهج الدراسية بتعريف عن هؤلاء العمالقة الأفذاذ.

كما شهدت جامعة الخرطوم ندوة تحت عنوان «مولانا جلال الدين الرومي والشعر الصوفي» أقيمت في قاعة الزبير الكبرى للمؤتمرات برعاية البروفيسور عبدالرحيم علي محمد إبراهيم مدير معهد الخرطوم الدولي للغة العربية وبحضور وزير الثقافة السوداني

وحشد غفير من النخب الثقافية والجامعية حيث أشاد المنتدون بالقيم الروحانية التي يمثلها الرومي والتكوين الفكري والروحي الذي شكلته الثقافة العربية في تنشئة هذا الشاعر الإيراني العالمي.

الرومي يقرأ ديوان المتنبي

أنشد مولانا ألف بيت من الشعر العربي ما عدا شعره الملمع أي الفارسي المطعم بالعربي، وهو متفاوت من حيث المستوى الفني والإبداعي، فبعض غزلياته العربية رائعة وبعضها يخالف فيها العروض والشؤون اللغوية، إلا أنه يبقى ميراثًا ثمينًا في مجال العرفان يقتدى به. وكان الرومي يقرأ ديوان المتنبي كغيره من شعراء الفارسية، كما أنه تأثر بغزل أبي نواس فحوله إلى غزل روحاني بالمعشوق الأسمى واقتبس بعض لمعه ولاسيما في مقطوعتين ركب منهما مقطوعة واحدة جاءت بعض عباراتها شبيهة بعبارات أبي نواس وذلك في غزلية مولانا بالعربية التي يقول في مطلعها:

يا صغير السن يا رطب البدن
وقريب العهد من شرب اللبن

وذلك من منطلق تجلي الخالق في الجمال الذي أبدعه سواء في الناس أو في الطبيعة.

الأغراض الشعرية في قصائد جلال الدين الرومي

عرف مولانا جلال الدين أهمية الروح وخساسة المادة جنب الروح وأدرك غفلة الناس عن هذا الجانب العظيم في الإنسان، الجانب الذي به يعيش وبه يعتز وبه يمتاز عن بقية الحيوانات. وجاءت أبياته بأمثلة لها أثرها وبدلائل لا يمكننا إلا قبولها.

يلاحظ أن الرومي أيقن تمامًا أن اليقظة الروحية والميل إلى القضاء على متطلبات النفس الأمارة بالسوء تأخذ بأيدي المسلمين وتجعلهم في الأمن والرفاه، حيث لا تؤثر الآفات المادية على تلك الروح الآخذة بالمبادئ السامية.

يرى المولوي الرومي أن التربية تلعب دورًا حاسمًا، وأن الأمر الهام هو التوجيه إلى ما هو الأصل الأصيل في التأثير على الناس، ليدركوا أهمية المبادئ الإنسانية القيمة، ويزيلوا بها العقبات التي تأخذهم إلى الظلمات ويشير جلال الدين في الدفتر الأول من ديوانه المثنوي إلى وصية الرسول الأكرم (ﷺ) للإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه إذ يقول في أبيات بالفارسية: «إذا تقرب كل أحد يريد التقّرب إلى الله تعالى بنوع من الطاعة، تقرب أنت إلى الله بصحبة العاقل ونصيحته حتى تكون أنت أسبقهم إلى الله تعالى».

ويجعل نصيحة العاقل من الأمور الهامة ومن الأسباب الموجهة إلى الحق والمؤثرة في التعريف بالمادة والماديات المانعة عن الانهماك في اللذات. وبما أن الصراع المحتوم بين الحق والباطل، بين المادة والمعنى يحتاج إلى التوجه الكامل نحوه، فإن التربية والاهتمام بحديث العقلاء الذين استناروا من الحق، وجعلوا عقولهم ضياء ترشدهم إلى الأفضل يمكننا من التغلب على الأهواء حسبما يقتضيه الدين القويم، الدين الذي يدعو إلى الله وإلى الخير.

إن المؤمن بنور الإيمان ينظر إلى خسة المادة ومن خلال هذا النظر يحرص على إسلامه ويصبح من أهل اليقين، يميز الحق عن الباطل ويزيد وثوقًا واطمئنانًا، يدرك ما لهذا اليقين من النتيجة الحتمية، وهي المحبة لله ولرسوله وأهل بيته وما لهذه المحبة من ثمرة. (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللَّهُ) (سورة آل عمران/ ٣١).

ويؤمن شيخنا الرومي بأن خاتم النبيين هو المثل الأعلى للمسلمين وإن طاعة الله تتوقف على طاعة الرسول (ﷺ) (مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) (سورة النساء/ ٨٠).

في الدفتر الأول من ديوان المثنوي المعنوي يقول الرومي في أبياته:

غاية الخلق الإحسان إليهم والمن عليهم، إنما خلقتهم لينتفعوا بي وبخيراتي ونعمتي، لم أخلقهم لأنتفع بهم وأقضي بهم حاجة نفسي، إنما خلقتهم إفاضةً للوجود وإظهارًا للسخاء والجود.

من خلال هذه الأبيات يعترف الرومي بأن الله لم يخلق هذا الكون عبثًا بل فيه غاية ترجع إلى العالم نفسه، وإن المجتمع في كل لحظة يحتاج إلى النظر في حاله، إذ الناس مختلفون فمنهم الحريص على الطلب، لا يبالي بما يهلكه ولا يسعى إلى ما ينجيه، ومنهم الناظر إلى الأمام بالتفكير العميق، بحيث يدرك سر الخالق ويؤمن بأن الله لم يخلق هذا العالم عبثًا.

طريق الوصول إلى الحقيقة صعب

أدرك العارف جلال الدين أن الطريق صعب، أراد الوصول إلى الحقيقة التي يعترف بها والتي تأخذه إلى الصدق واليقين. ما هو الوصول الحقيقي للحقيقة؟ وما هو الوصول الوهمي الذي يعده الشخص وصولاً ولكنه ضلال في ضلال؟ إن بعض الناس يقع في الوهم ويظن الوصول ولكن الحقيقة تأباه.

ومن أجل التفريق بين الوصول الحقيقي والوصول الوهمي يقف وسط الزحام بين العلماء ورجال الفكر والفلاسفة وينادي قائلاً: «عليكم بالسعي في طريق الأدب للوصول،

ولا تعدوا أعمالكم بأنها هي الموصلة حقيقة، إذ إن إدراك الحقيقة هو كل شيء، ولكن أين الطريق؟ عليكم السعي عن طريق قلب عرف الله، ولسان ذكر الله، وروح أتى بالعرفان، وجسم خضع للروح، ونفس اطمأنت إلى ذكر الله، اطمأنت ونجت من الاضطراب».

لا رهبانية في الإسلام

في طريقه إلى الخلوة ينادي شيخنا جلال الدين بأعلى صوته: «لا رهبانية في الإسلام، ولست آخذًا بالرهبانية، بل بالخلوة بعض الشيء مع نفسي، مع روحي، مع عقلي، مع تفكيري، لأستنتج من هذه الخلوة ما هو في صالحي وصالح المسلمين عامة بل وصالح الإنسانية جمعاء».

وفي مجال تهذيب النفس يقول: «العلم الواصل إلى الرأس هو العدو، وهو الغرور، ولكن العلم الواصل إلى القلب هو النور، وهو الموصل إلى الحقيقة».

في الدفتر الأول من المثنوي المعنوي (البيت ٢٤٦٢) يقول جلال الدين بأن ظهور الحق في الدنيا على أيدي الرسل قد كشف ما كان يسودها من زيف، فالذهب المزيف لو ترك وشأنه لظُن ذهبًا، ولكنه إذا وضع في النار تكشفت حقيقته، وفرعون كان باقيًا على مظهره المخادع لو لم يظهر النبي موسى (ع).

الدعوة إلى نفي الذات

طالما نادى الرومي إلى الفناء ونفي الذات جاعلاً هذه المرتبة مقدمة للسالك في سلوكه إلى طريق المعرفة الروحية، مؤكدًا أن الأوهام مانعة عن الوصول إلى الحقيقة، الأوهام التي تعبر مثل الظل. وإن الأولياء يقودون العقل، والعقل يقود الإنسان.

أخذ الرومي يشرح العقل، والإنسان الذي بالعقل يفوق الحيوانات وبدأ بدراسة جهات العقل ومدركاته واشتباهاته ووصوله إلى الحق والصدق واليقين.

****

العرفان الإسلامي ونبذه للتصوُّف المزيف

انطلق العرفان الإسلامي منذ بزوغ فجر الإسلام في الجزيرة العربية واتسع تزامنًا مع اتساع رقعة الدين المبين، وطالما خلط الباحثون بين التصوف والعرفان حيث إن العرفان انفصل عن التصوف منذ القرن السادس الهجري حيث اقتصر التصوف على الجانب الاجتماعي للعرفان متناولاً المفاهيم الذهنية ببعدها النظري بينما اهتم العرفان بالعلاقة بين الإنسان وخالقه، والعشق المتبادل بينهما (يحبهم ويحبونه) والزهد والابتعاد عن المظاهر الدنيوية الزائفة والتخلص من الأهواء النفسانية مقتديًا بالرسول الأكرم وأئمة الهدى.

ومنذ القرن الرابع للهجرة تأثر الشعر الفارسي بالعرفان واتخذ من اللغة الرمزية والاستعارات المجازية منطلقًا لبيان أفكاره، وبدأ العرفاء الشعراء يعبِّرون عمّا يختلج في صدورهم بأبيات تحمل معانيًا بسيطة بعيدة عن الإبهام حيث تألق هذا الأسلوب بديوان المثنوي المعنوي للرومي.

وخلال هذه الفترة بدأ التصوف المزيف يجد أتباعًا له هنا وهناك وبدأ الخلاف بين المتصوفين وبين المتشرعين الذين اعتبروا وحدة الوجود ومسألة اتحاد الخالق والمخلوق لا تتناسب مع معتقداتهم.

العارف واختيار الأستاذ الكامل

أهمية الأستاذ الكامل للسالكين في طريق العرفان هامة جدًا، فقد يلتقي السالك في حياته ببعض العرفاء أو العلماء الذين يتأثر بأخلاقهم ويستفيد من مواعظهم وإرشاداتهم في تهذيب سلوكه، ولكن للأستاذ منزلة أهم من ذلك، وليس الأستاذ ممن يختاره السالك لنفسه، بل هو ممن يختاره الله تعالى له. كما لا بد لمن يريد السلوك في طريق العرفان من أستاذ يرشده ويأخذ بيده للوصول إلى الكمال، فإن السير في طريق السلوك الروحي

مليء بالمطبات والمتاهات التي يضل فيها السائر وحده أو من اختار أستاذًا لنفسه لم يصل إلى درجة الكمال.

إن أهم ما يحتاجه السالك في طريق العرفان هو الأستاذ الخبير، المتحرر من الأهواء، والإنسان الكامل المتبحّر في المعارف الإلهية، والذي طوى إضافة إلى سيره إلى الله ثلاثة أسفار أخرى، وكانت سياحته في عالم الخلق بالحق.

ولو قضى السالك إلى الله تعالى نصف عمره في البحث عن أستاذ ما كان ملومًا. فإن حصل على الأستاذ الكامل فقد قطع نصف الطريق.

الأسفار الأربعة

أما الأسفار الأربعة التي يسافرها السالك للوصول إلى الكمال فهي كالآتي:

السفر الأول: وهو سفر العارف وسيره في سلوكه من الخلق إلى الحق سبحانه وتعالى، فيرى آيات الله سبحانه في نفسه وفي جميع المخلوقات والآفاق، ويرى كل موجود لمعة من نور الحق وتجليات فيضه، قال سبحانه وتعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقُّ) (فصلت/٥٣). وقوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة/١٦٤).

السفر الثاني: وهو السفر من الحق إلى الحق، ومعناه هو أن يسافر العارف بعد طي السفر الأول في منازل الفناء في الذات المقدسة إلى مراحل الفناء في الصفات العليا، فيسلك ويسير من الفناء في ذاته إلى الفناء في كمالاته، من كمال إلى كمال آخر، فيظهر للسالك واحديته تعالى وأحديته وعلمه وقدرته وإرادته وحكمته وسمعه وبصره ويعرف الأسماء كلها إلا ما استأثر به الله تعالى. فالسفر الأول هو الفناء في الذات، وهذا السفر هو الفناء في الصفات، فيرى الله في كل شيء ولا يخلو منه شيء وأنه أقرب إليه من حبل الوريد وأن لا قوة إلا به، فيسمع ويبصر وينطق ويريد ويفعل ويتحرك بحول منه تعالى وقوته وإن كان الكل منه سبحانه.

قال أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه: «ما رأيت شيئًا إلا ورأيت الله معه وقبله وبعده». وحينئذٍ تكون صفات العبد منزهة عن الرذائل، لا يشوب عمله الجهل، ولا يخالط قدرته عجز، ولا إرادته التردد، ولا علمه الباطل، بل يتعلق بما أراده الله سبحانه وتعالى، فلا يريد إلا ما أراده الله، ولا يحب ولا يبغض إلا في الله.

السفر الثالث: وهو السفر من الحق إلى الخلق، وهو السير من عالم اللاهوت إلى عالم الجبروت، من الله تعالى إلى أعيان الموجودات وآثارها وما يترتب عليها من النتائج، فيعرض للسالك الصحو التام، وعند ذلك يعرف صدور الكثرة من الوحدة الحقة ويبقى ببقاء الله تعالى.

قال النبي (ﷺ): «إنما خلقتم للبقاء لا للفناء». ويكون للعارف بعد طي هذا السفر حظ من الإلهام النفسي.

السفر الرابع: وهو السفر من الخلق إلى الحق. فإذا قطع السالك هذه المنازل المعنوية ووصل إلى هذه المرحلة من الكمال شاهد الملك وسمع خطابه وشاهد أفعال الله تعالى ولوازمها وسعادة البشر والمخلوقات وشقاوتهم، وعرف منافع الأعمال ومضارها وصلاح الخلائق في النشأتين: الدنيا والآخرة وفسادهما، وعندها يأمر بالإصلاح والإرشاد وينهى عن الضلال، وعرف حقيقة الجنة والنار والصراط والميزان والكتب والصحف وما جاءت به الرسل من الكتب السماوية وما هبطت به الملائكة من الوحي، قال الله تعالى: (وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً) (البقرة/٢٦٩).

تعريف العارف

في مصباح الشريعة يقول الإمام الصادق رضي الله عنه في تعريف العارف: «والعارف شخصه مع الخلق، وقلبه مع الله، ولو سها قلبه عن الله طرفة عين لمات شوقًا إليه، والعارف أمين ودائع الله، وكنز أسراره، ومعدن نوره، ودليل رحمته على خلقه، ومطية علومه، وميزان فضله وعدله، قد غني عن الخلق والمراد والدنيا، ولا مؤنس له سوى الله، ولا نطق ولا إشارة ولا نفس إلا بالله ولله ومن الله ومع الله، فهو في رياض قدسه متردد، ومن لطائف فضله إليه متزود، والمعرفة أصله وفرعه الإيمان».

فالعرفان هو عبادة العاشقين لله سبحانه والمشتاقين إلى لقائه عز وجل.

ونؤكد هنا على أن العرفان غير التصوف، لما رأيناه من محاربة المعاندين للعرفان باسم التصوف، ونكتفي بنقل نصٍّ للعارف الميرزا جواد الملكي وهو من كبار علماء الشريعة في مدينة قم المقدسة عن الصوفية، يقول: «وأما رفض الصور – أي صورة العبادات الظاهرية – كلية كما قد يتراءى من بعض الصوفية فهو أيضًا ضلال، بل هو ضلال وإضلال، وفيه خروج عن الدين.

بل الذي يتراءى من هذه الطائفة المدعين للحقائق والمهملين للصور والتاركين لها، أنهم يتركون المعاني أيضًا، بل التارك للصورة أترك للمعاني من الصور، وهذا أضر للإسلام من كل شيء، لأن بقاء الدين بحفظ الصورة غالبًا..».

العلم والعرفان:

لابد من الإشارة إلى أن هناك فرق بين العلم والعرفان فالعلم هو الاطلاع على ذات الشيء وأما العرفان فهو العلم بآثار الشيء ومصاديقه أو هو إدراك الشيء بفكر وتدبر وهو أخص من العلم، وضده الإنكار وما أحسن ما قاله الأستاذ العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (رضي الله عنه) في تفسيره (الميزان في تفسير القرآن) حول معنى العرفان أنه: «تطبيق الصورة الحاصلة في المدركة على ما هو مخزون في الذهن ولذا قيل إنه إدراك بعد علم سابق».

السير والسلوك:

يقول العرفاء إن الإنسان يشعر على الدوام بالنقص والاحتياج، وبفطرته الأصيلة يميل إلى من يسد نقصه واحتياجه، ولجبر هاتين النقيصتين يتحرك نحو الكمال، هذه الحركة المعنوية الباطنية والذاتية الخفية التي تنشأ في روح الإنسان وقلبه وترتقي بهما تجاه الذات القدسية وكل الكمال تعرف بالسير والسلوك إلى الله.

عباراتنا شتى وحُسنُكَ واحدُ
وكُلٌّ إلى ذاكَ الجمال يُشيرُ

فالسلوك هو طي الطريق للوصول إلى لقاء جمال ذي الجمال المطلق والسير هو مشاهدة آثار وخصائص المنازل التي يطويها السالك منزلاً بعد منزل والمترتبة بعضها على بعض وكلما يطوي منزلاً يرقى إلى الكمال أكثر فأكثر حتى يصل إلى أوج الكمال وهو مقام الإنسان الكامل.

وعلى هذا فمبدأ السير والسلوك إلى الله هو النقص والاحتياج الفطري كما قال سبحانه وتعالى: (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً)، ومنتهاه جناب الحق المنزه عن كل نقص: (وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى).

ولاشك أن الجذبة الإلهية والنفحات الرحمانية هي التي تدفع الإنسان إلى التعرف إلى عوالم الغيب وكشف حقائق عالم الوجود، فحينما خلق الله العباد وهو ذو المن القديم هيأ لهم الأسباب والعلل ليفيض عليهم من شمائم ألطافه الغيبية ونسائم نفحاته القدسية.

✷✷✷✷

ماذا يقدم الرومي للعالم في القرن الجديد؟

يحتفل العالم بمرور المئوية الثامنة على ميلاد جلال الدين الرومي فهو واحد من أكثر العرفاء نفوذًا وتأثيرًا في الشرق والغرب. إن كل الذين قرأوا قصائد مولانا واطلعوا على أفكاره العميقة ورؤاه العرفانية من مسلمين وغير مسلمين تأثروا بأفكار هذا الحكيم وانجذبوا لأعماله المتصفة بالعمق والشمولية.

وفي خضم عالم اليوم المليء بالتحديات والمصاعب، ماذا عسانا نستلهم من قراءة غزليات الرومي وكيف يمكن لهذه القريحة الثرّة أن تحل العُقَد التربوية والفكرية التي تعاني منها مجتمعاتنا، وكيف تنجح في معالجة السلبيات التي يئن منها المعلمون والمربون؟ ما هو النداء الذي توجهه لنا هذه القصائد في هذه المرحلة الزمنية؟

لعل أحد أهم الأطروحات التي تناولها المولوي الرومي هو استيعابه للتعددية والتباين في أفكار الناس، وصيغ فهمهم وتلقيهم وكان من القلائل الذين اهتموا بالتنوع الثقافي وبالقيم المعنوية الأصيلة ولم يغفل النظرة التعددية لحقائق الأشياء.

يتطرق المولوي في الدفتر الثالث من ديوان المثنوي إلى قصة فيل في بيت مظلم يلمس الأشخاصُ أماكنَ مختلفة من جسده، ويتوصل كل منهم إلى معطيات مختلفة حول ماهية الشيء الذي لمسوه في الظلمة. يقول مولانا في سرده للقصة: باختلاف الزوايا اختلفت أقوالهم. قال شخص إنه حرف الدال وقال الآخر بل إنه: الألف!

يبين شاعرنا أهمية الزاوية التي ينظر منها الإنسان للقضايا المختلفة والتي من الطبيعي أن تتمخض عن اختلاف في التلقي والفهم، ولكن الدليل الذي يكشف الحقيقة هو:

إذا وضعت في يد كل شخص شمعة
زال الاختـــلاف في أقـــوالـــهم

يؤكد المولوي على أن الهداية الإلهية ورسالة الأنبياء وصفاء الذات وتهذيب النفوس تؤهل الإنسان لدرك الحقيقة بشفافية ووضوح وتساعده لكشف أسرار العالم وخباياه.

الرومي وحوار الحضارات

إن حكايات المولوي تدعو للحوار والتفاهم والتقارب وتطهر النفوس من التحجر الفكري وقصر النظر والتعصب الأعمى وتكبح جماح الداعين لصراع الحضارات.

إن حاجتنا الماسة لأبيات المثنوي تكمن في دعوتها للتناغم الثقافي والتواؤم الفكري مع الآخر الذي ينظر للقضايا الدينية والفلسفية بمنظار مختلف.

في حكاية أخرى للرومي وردت في دفتره الثاني من ديوان المثنوي يعالج تنوع التعبير في إطار اللغات والثقافات المختلفة والمتباينة: أربعة أشخاص عربي ورومي وتركي وفارسي كل واحد منهم يطلب عنبًا وكل منهم يستعمل لفظة مغايرة عن الآخر فيظنون أن بينهم نزاعًا بينما هم يطلبون شيئًا واحدًا.

صاحبُ سرٍّ عارفٌ بمئة لغةٍ
لو كان هناك لصالَحَ بينهم

ولقال لهم:

أستطيع بدرهمٍ واحدٍ
أن أحقق آمالكم جميعًا!

ويلخص الرومي هذا التباين الظاهري والاتحاد الحقيقي بقوله:

إن اختلاف الناس سوف يزول
إذا انتقلنا من الألفاظ إلى المعاني

أي أن الكثير من الحروب والصراعات التي يعاني منها عالم اليوم في المجالات الفكرية والعقائدية ناجمة عن سوء الفهم، ولو نظر هؤلاء بعين البصيرة وغاصوا في المعنى ولم يكتفوا بالظاهر لسويت الخلافات واندثرت.

في عالم يتحدث عن الحروب الصليبية وصراع الحضارات تؤسس قصائد جلال الدين الرومي لأرضية صلبة لحوار الحضارات وتعايش الثقافات وتفاهم الأديان وتعتبر السبيل الأمثل لحل النزاعات الكلامية والوهمية بعد أن ننبذ القشور ونتوصل إلى لب الحقيقة.

إن قصائد الرومي تدعو البشرية إلى المعنوية والأخلاق والالتزام بالمفاهيم الدينية حيث إن التقدم البشري الهائل في المجالات التقنية والعلمية سينقلب شرّاً وبيلاً على الناس إذا لم يصاحبه الخلق الرفيع والالتزام المعنوي. إنه يستلهم من الحديث الشريف «أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك» قاعدة أخلاق تقودنا للتوجه الرباني والاهتمام بالقيم الدينية والمعنوية.

كل كنزٍ لا يخلو من فَخٍّ ومفترسٍ
ولا أمان إلا في الخلوة مع الذات المقدسة
كل ما كان سوى حُبِّ أحسنِ الخالقين
حتى ولو كان بطعم السكَّر، فإنه كنزع الروح

****

الدنيا كما يراها الرومي

إن التعريف الذي يطرحه جلال الدين الرومي للدنيا هو كل ما يجعل الإنسان غافلاً عن ذكر الله ويؤكد أن الثروة والأموال والزوجة والأولاد يمكن أن تعين الإنسان في نيل الكمال الأخلاقي والتربوي فهي ليست مذمومة، وبإمكانها أن تمثل إرهاصات الانطلاق نحو الهدف الأصلي:

ما هي الدنيـــا؟ الغفـلة عن ذكـر الله
ليست بالثياب والفضة ووزن الإنسان

وفي أبيات متعددة يؤكد على أن حب الدنيا والتعلق بها مغروس في ذات الإنسان وأن العزوف عن ملذات الدنيا وتركها صعب مستصعب، ويحاول أن ينقل هذه الفكرة إلى القارئ في قالب التمثيل والتصوير من خلال: ١ – كره الدنيا، ٢ – النوم الدنيوي، ٣ – حطام الدنيا، ٤ – جيفة الدنيا، مشيرًا إلى أن أهل الحق لا يعيرون أهمية للدنيا ويحتقرون زينتها، وأن الأنبياء والأولياء تضيق أنفسهم في الدنيا ويتوقون إلى العالم الخالد، وأن الهدف الأساس من الدنيا هو العبادة، بينما أهل الدنيا يعبدونها ويحبونها صم بكم كما الشيطان، ويضيف بأن «مال الدنيا هو فخ نصبه الصياد للطيور الضعيفة» وأن الدنيا هي قبلة النفس وأهوائها.

الإنسان المثالي عند الرومي

تمر ثمانية قرون وما زال صوت ناي الرومي يثير الطرب والوجد لدى أصحاب القلوب الباحثة عن الحقيقة، ويحتل الإنسان الكامل والمثالي لدى هذا العارف الحكيم مكانة رفيعة حيث يحقق ولادة جديدة في فكره وعواطفه من خلال العزوف عن المغريات الدنيوية

وترويض النفس الأمارة وتهذيب الأخلاق والتمتع بقلب صاف وروح متقدة تسمو نحو قمة الكمال وتتصل بالفيض الإلهي.

ويشبّه الرومي الإنسان المثالي بالناي، حيث يخلو باطنه من الغل والغش، ويتمتع بانشراح الصدر مستنداً للحديث الشريف «مثل المؤمن كمثل المزمار لا يحسن صوته إلا بخلاء بطنه» حيث إن الأصوات التي يصدرها مبدؤها العازف وليس الناي أو المزمار المليء بالنفحات الإلهية.

ويرى الرومي أن مقام خلافة الله وتجلي الأسماء والصفات الإلهية يختص بصنف من البشر وأن سجود الملائكة لآدم لم يكن لوجوده المادي بل لتجلي الحق فيه، والإنسان الذي هو عبارة عن جمال إلهي تسجد له الملائكة.

ويصف مولانا الإنسانَ باسطرلاب الحق حيث تنعكس فيه أوصافه كما تنعكس صورة القمر في ماء النهر، مستلهماً تمثيله من مضمون الحديث الشريف «خلق الله آدم على صورته» حين يقول:

إن آدم هو اسطرلاب لأوصاف العلي الأعلى
وإن أوصاف آدم هي مظهر الآيات القرآنية
كل ما يظهر في الإنسان هو انعكاس لصورة الحق
كما تنعكس صورة القمر في ماء النهر

وطالما أكد مولانا جلال الدين على أن شمس كان ملهمه حين قال:

«إن شمس تبريز قد حرّك أوتار القيثار في روحي
فلا جرمَ أني أصبحت أرغن العشق»

ولا عجب أن يقول:

«إن الروح التي ليس شعارها العشق الحقّ
من الخير ألا توجد. فليس وجودها سوى عار
كن ثملاً بالعشق. فإنّ الوجود كلّه عشق

---

١ – طبع في طهران سنة ١٩٧٠، بتحقيق الأستاذ أحمد خوشنويس (عماد).

ومن دون العشق وشؤونه لا سبيل إلى الحبيب»

الجدير بالذكر أن جلال الدين زوّج ابنته كيمياء لشمس بعد قصة حبّ جارفة تمثلت فيها رغبة الأب في ارتباط رفيق دربه بأسرته عبر هذا الزواج.

ترميم مثوى شمس تبريز تقديراً لدوره في حياة مولانا

تزامنًا مع احتفال دول العالم بالمئوية الثامنة للشاعر جلال الدين المولوي بدأت أعمال ترميم وبناء مقبرة شمس التبريزي في مدينة خوي بمحافظة أذربيجان الغربية الإيرانية. وتضم المقبرة مثوى هذا العارف الشهير وأحد تلامذته وتتوسطها منارة أسطوانية الشكل يبلغ ارتفاعها (١٢مترًا) تعرف بمنارة شمس وتقع في حي (إمام زاده).

وقد أكد الباحثون وعلماء الآثار الإيرانيون صحة انتساب القبر لشمس تبريز من خلال الوثائق التاريخية التي حصلوا عليها.

كما أقيم بجوار مقبرة هذا العارف في مدينة خوي مؤتمر حضره نخبة من المفكرين الإيرانيين والأجانب بالتعاون مع هيئة التراث الثقافي والسياحة التابعة لوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي في إيران.

وقد تمخض لقاء مولانا بشمس تبريز عن ثورة في حياة هذا الشاعر أدت إلى أن يهجر مهنة الوعظ والإرشاد ليتحول إلى شاعر عارف وحكيم حيث كان شمس الضالة المنشودة للمولوي الذي ألف ديوانًا باسم ديوان شمس التبريزي يتضمن الغزليات والرباعيات.

ولشمس الدين كتاب يضم ما أثر عنه من أقوال يسمى «مقالات»[1]، يتبين منه أن شمس الدين كان متبحرًا في العلوم الدينية فضلاً عن درايته الواسعة بآراء المتكلمين

(١) هو شمس الدين أحمد الأفلاكي، شرع في تأليف كتابه المسمى «مناقب العارفين» بالفارسية عن سيرة جلال الدين الرومي سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م، أي بعد وفاة جلال الدين بنحو خمس وأربعين سنة.
(٢) مقالات، طبع عماد، ص٥٩.

والفلاسفة، مما جعله يوجه إليهم في كتابه المذكور الكثير من الانتقادات والعديد من المطاعن، كما يشتمل الكتاب على تحليل لعقائد الفرق المختلفة، وأبيات لشعراء من العرب والفرس، ونظرة نقدية واعية للعلوم الرائجة في عصره، وعناية بالأحداث التاريخية ودلالتها.

وقد اختلف أقوال الرواة اختلافًا كبيرًا في تحديد نسب شمس الدين، ولا نجد من بين هذه الأقوال ما يمكن الاستناد إليه والوقوف عنده. ويذكر «الأفلاكي»[1] وهو يعرفنا بشمس الدين أن «اسمه محمد بن علي بن مُلكْ داد».

وتبدو حياة شمس الدين غامضة كل الغموض، لكننا نستطيع أن نقف على لمحات يسيرة من سيرته من خلال كتابه «مقالات».

فهو يذكر في كتابه أنه كان واحدًا من مريدي «أبي بكر سلّه باف»، يقول: «كان لي شيخ اسمه أبوبكر بمدينة تبريز، كان يصنع السِّلال، وقد تحصَّل لي منه الكثير من الإفاضات، لكن، كان بأعماقي شيء لم يكن شيخي يراه، ولم يكن أحد قد رآه من قبل؛ ذلك الشيء قد رآه مولانا (يعني جلال الدين)». ويضيف قائلاً وهو يخاطب جلال الدين: «وما فعلته لأجلك لم أفعله لشيخي، وفارقته قهرًا، وكان يقول: أنا الشيخ».

ونستطيع أن ندرك من العبارة الأخيرة أن شمس الدين ترك شيخه مُغضَبًا، وكان هذا دأب شمس الدين مع كل من رآه من شيوخ عصره، الذين لم يستطع أحد منهم أن يستولي على لُبِّه أو يخضعه لتعاليمه. وهو حين يتحدث عن أي منهم يعد نفسه أعلى منه مقامًا وأرسخ قدمًا، اللهم إلا جلال الدين.

وربما كان هذا هو الأمر الذي جعل شمس الدين يتورَّع عن أن ينتسب إلى فرقة من الفرق أو طريقة من الطرق ويتقيد برسومها ويلتزم تقاليدها، وإنما كان مرجعه دائمًا النبع الصافي كي يرتوي منه، كما أشار هو قائلاً: «كل امرئ يتحدث عن شيخه، لقد أعطانا

(١) انظر: «مقالات»، ص٢٥٢، وهو محمد بن اسحاق، أحد كبار تلامذة ابن عربي، كانت بينه وبين جلال الدين لقاءات وتقدير متبادل، توفي ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م.

(٢) مقالات، ٣٤٧ – ٣٤٨، صحب ابن عربي زمنًا، وكان من مشاهير مشايخ الصوفية في عصره، توفي ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م.

قالـوا $ الرومي

الرومي.. يشدو بأعذب ألحان الحبّ وسط الأعاصير المخربة

ومن العجيب أن يبزغ مثل جلال الدين في رفعة القدر وعلوّ المكانة وصفاء التعبير الروحي والمناداة بالحب والدعوة إلى التسامح والتحليق في أجواء رائعة من الجمال والسلام على الرغم من تلك الأعاصير المطيحة والزلازل الاجتماعية المخرّبة. إنه كان ينظر إلى تلك العواصف والطوائح نظرة هادئة نافذة ليستخلص من خلال زيف الحروب وجحيم المطامع وترويع الآمنين جوهر الإنسان الأصيل وليشدو بأعذب ألحان الحب والتعاطف الإنسانية.

لقد عالجت أشعاره شؤونًا إنسانية كثيرة وأمورًا فلسفية غيبية كالجبر والاختيار بأسلوب فني وتمثيل حسي بديع. كان يكره الظلم والطغيان والسيطرة والاستبداد والاستكبار ويدعو إلى الحرية والتعاون والترفع فوق جشع المادة وعمى البصيرة.

يقول ساخرًا من الطغيان: «إن الذي حطّم بمخالبه الكثير من الرؤوس قد اكتسحته مكنسة الموت كما تكتسح القذارة».

أشعار كتابه المثنوي من أرقى الأشعار وهو منظوم على وزن بحر الرمل العربي تتكرر فيه فاعلاتن ست مرات ولكنها في نهاية كل شطر محذوفة النون فتصبح فاعلات. وقافية كل شطرين من البيت واحدة. وهذا ما يسهل النظم الذي يمتاز به الشعر الفارسي ويخوّل الشعراء طول الأنفاس ما دامت القافية تتغير من بيت إلى آخر. وذلك سبب تسميته

بالمثنوي ويتضمن المثنوي عدداً كبيراً من الحكايات والقصص المتداولة والمتخيّلة تتعلق بأغراض شتى دنيويّة وأخروية، مادية وروحانية موزعة على مختلف الأبواب الصوفية أو الكشفية بعضها يفهم المقصود منه بسهولة ووضوح، وبعضها يلفُّه الغموض ويحتاج إلى التأمل والتأويل. ويبدؤه جلال الدين بالمقطوعة المشهور «أغنية الناي».

لقد كان أجدادنا المثقفون يعرفون اللغة الفارسية ويقرؤون عظماء شعرائها المبرزين وحكمائها المتفوقين، ثم ابتليت البلاد العربية أخيراً بالاستعمار الغربي الذي أغطش أبصار أبنائها وغزا ثقافاتهم وصرفهم نحو ثقافته وحال بينهم وبين الاطلاع على الكنوز الشرقية المتعددة. وقد آن لنا في هذا العصر أن نفتح قلوبنا لجميع أنواع التراث العالمي ولا سيما للتراث الإسلامي الغنيّ المشترك بين شعوب قدمت للإنسانية أفخر الكنوز العلميّة والرّوحية.

إن جلال الدين الرومي إحدى العبقريات العليا التي قلّ أن يجود بها الزمان. وشعره المتحلّي بالأصالة وحسن التصوير وإبداع القصص وحلاوة العرض والأداء الفني، والحافل بالمعاني والرموز والحكمة والتألق الوجداني والسمو الروحاني يدعو النفوس الغنية بالمواهب إلى تأمل آثاره وقراءتها ولو كانت مترجمة، لأنه يطلقها في أجواء هي في أشد الحاجة إليها للتفتح والانطلاق والعلاء والسيادة سواء كانت تلك المواهب دينية أو خلقية أو فنية أو فلسفية. بل حسبها أن تكون إنسانية بكل ما في هذا اللفظ من معاني ودلالة.

إنه صوفي وأيُّ صوفي وفيلسوف إشراقي عظيم وعلى الرغم من براعته في التصوير وحلاوة بيانه ورهافة إبداعه كان يتجاوز كل ذلك إلى الأصل الأول الذي تتفرع عنه تلك المحاسن الرائعة. يتغنى فيقول واثقًا بعبقريته وإبداعه:

«إنني مصور نقّاش أصنع في كلِّ لحظة تمثالاً
ولكنّي في حضرتك أصهر كل هذه التماثيل
وإني لأخلق مائة نقش وأبثُّ فيها الروح

فإذا ما رأيت تصويرك ألقيت بها جميعًا في النار»

ويقول:

«إن كلّ صورة رأيتها فجنسُها في اللامكان

فلو ذهبت الصورة فلا حزن مادام أصلها خالدًا».

وهكذا نجد هذا الاتجاه المتألق بألوان قزح البديعة صاعدًا إلى العلاء متساميًا يكاد يحملنا على متنه كالبُراق الخاطف أو البرق الوامض.

أ. د. عبدالكريم اليافي

مفكر وأستاذ في جامعة دمشق

****

المولوي: أكبر شاعر صوفي في العالم

– جلال الدين المولوي الرومي واحد من أساطين الشعر العالمي، وفي الطليعة من شعراء الإسلام، وربما يكون أكبر شاعر صوفي في العالم. إنه مدرسة في الفكر الإسلامي العالي والأدب الإسلامي الرفيع، ويجد طلاب الأدب والثقافة العرب في قصائده ما يمكن أن يسهم في تصحيح نظرتهم إلى أمتهم العظيمة ونتاجات مبدعيها الأفذاذ. يقول عنه عبدالرحمن الجامي (الوفاة ٨٩٧هـ): ماذا أقول في مدح هذه الشخصية النبيلة؟ ليس نبيّاً، ولكن لديه كتابًا. ويقول عنه العلامة محمد إقبال اللاهوري: «**لن يطلع من رياض شقائق النعمان في إيران مولوي آخر**».

أ. د. عيسى علي العاكوب
كلية الآداب – جامعة حلب

****

الرومي: فيلسوف قلّما يجود الزمان بمثله

– لم يكن جلال الدين الرومي شاعرًا كسائر الشعراء، ولا صوفيّاً كسائر الصوفية، ولكنه عالم حنفي فقيه، وما تصوفه إلا الصورة الواعية لما كان عليه من علم وفقه.

لقي جلال الدين الرومي عناية فائقة من علماء المسلمين والمستشرقين، وكتب عنه الكثير، وقلما ظفر مفكر فارسي مسلم بما ظفر به إنتاج جلال الدين من عناية. كتب عنه إنتاج ضخم بالفارسية والعربية والأوردية، ثم بالانجليزية والفرنسية والألمانية.

وفي القرن العشرين يظهر بين مسلمي الهند شاعر فذ، ومصلح إسلامي كبير وفيلسوف قلَّما يجود الزمان بمثله، يرى حالة المسلمين ويشفق عليهم ويتساءل: لماذا هذا الإسلام مهيض الجناح مع ما عليه من خير المبادئ التي تدعو إلى قوة الذات وعزة الدين؟

يدرس محمد إقبال تاريخ المسلمين ويرى عهد النبي (ﷺ) والراشدين رضي الله عنهم القدوة التي أهملها المسلمون فذلّوا بعد عزة، ونكصوا على أعقابهم بعد إقدام. يدرس إقبالُ فلا يرى من مخرج إلا أن يتخذ من جلال الدين الرومي إمامًا. وإنك لتقرأ في دواوين إقبال فترى بين السطور آراء الرومي وتتمثل اتجاهاته الإسلامية.

ولا يؤخذ على الرومي ما يقوم به بعض من يدّعون الانتساب إليه، ويعيشون عيش الكسالى في التكايا، ويعرضون على السواح من الفرنجة رقصاتهم، ويسمعونهم أنات الناي تشكو فراق الحبيب! هذه بدع أدخلت على طريقته، وما دعا إليها الرومي العالم

الثبت، والسالك الأمين الصادق الذي أراد أن يتخذ من التصوف مهربًا من واقع الحياة وتقربًا إلى الله، عسى أن ينجي المسلمين من شر عدوان المغول.

إن التصوف العملي يوقظ الأمة من سباتها ويعيد للمسلمين ما كان لهم من المجد أيام كانت سيرة النبي والراشدين مثلاً أعلى لهم.

أ. د. يحيى الخشاب

المعادي – 26 مايو 1977 – مصر

****

النضج الروحي: الخلوة أربعون يومًا

مقدمة كتاب (الشمس المنتصرة)

يذهب فريدون سبَهسالار، وهو مؤلف سيرة حياة الرّومي الأكثر شهرة، إلى أنه ظلّ في خدمة الشيخ لمدّة أربعين سنة.

وعلينا أن نخمِّن هنا، أنّ «الأربعين» إنما تشير إلى مدة الاختبار والمكابدة: مثلما يكون على المتصوف، وهو في طريق السّير والسلوك، أن يعيش في الخلوة أربعين يومًا ابتغاء النضج الروحي، قال عدد من الصوفية إنهم خدموا الشيخ أربعين سنةً إلى أن ظفروا بالاستنارة الحقيقية. ويمكن أن نفهم إشارة سبهسالار بوصفها بيانًا من هذا القبيل.

مؤلّفة هذا الكتاب تعترف بأنها اهتمت بأعمال الرومي على امتداد أربعين سنةً تمامًا حيث قالت: بدءًا من أيام دراستي الأولى عندما قرأت أول مرة بعضًا من الترجمات الشعرية الرائعة التي قام بها روكرت Rükert من ديوان مولانا جلال الدين، تلك الأشعار الألمانية التي ظلّت دائمًا تخلب لبّي. ثمّ، عندما كنتُ طالبةً شابّة تدرس اللغات الإسلامية في برلين إبّان الحرب، فإنّ اللحظة التي أنشدَ لنا فيها أستاذي المبجّل البروفسور هـ. هـ. شيدر H. H. Schaeder الأبيات الأولى من مثنويّ الروميّ أثبتت أنها حاسمة في تطوير هذا الحب القديم.

كان الرومي كائنًا بشريًا، بكل ما تنطوي عليه الكلمة من دلالة: استخدامه الصور يثبت ذلك، وملاحظاته الشخصية جدًا، وقصائده القصار التي ولدتها النشوة أو الغضب المفاجئ تثبت ذلك أيضًا، لكنه عرف أن السلم الروحي الذي وصفه كثيرًا في أشعاره لا يكمن في قتل الطبائع الذميمة والتخلص من عالم المادة بل في تكاملها في ارتقاء الإنسان.

شيطانُ النفس الحقير يغدو مسلمًا مخلصًا، الشيطان نفسه يتحول إلى ملاك بمجرد أن يستخدم العشقُ كيمياءَه السحرية. بعدئذٍ يرى الإنسانُ «الفقرَ»، الفقر الروحي والتجرد من كل خاصية مخلوقة، مثل الياقوت الأحمر، الشبيه بـ«بلاسيو balascio» دانتي في خاتمة الكوميديا الإلهية. وإذ يكون قد فني في ألق هذا الياقوت وناره يُفضي به ذلك إلى (قَلْبِ) قلب العِشق. وعندما يعود مرة أخرى، يرى العالَمَ مختلفًا، وممتلئًا بالمعنى، ولا يظلّ يراه في صورة كومة روث كما يظهر لعيني إنسان زاهدٍ. ومهما كانت فِكَرُهُ بسيطة، فإن المعالجة الكاملة لأعماله أمر مستحيل. فإنّ تنوع التعابير، والزخرفة الثرية للمادة البسيطة، والطبيعة اللألاءة للصور، تجعل المرء مختلَبًا من جديد كلما اقترب من حمى آثاره.

البروفيسورة الألمانية آن ماري شيمل

مؤلفة كتاب الشمس المنتصرة

حول حياة وأدب جلال الدين الرومي

****

مللت الوحوش.. وأبحث عن إنسان

إن السبب الذي دفعني للإلحاح على الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا لتعريب غزليات شمس تبريزي هو رغبتي في قراءتها والإلمام بها. وذلك لوقوفي على خصوصية الشعر الفارسي عمومًا وروعته، فما البال بالآثار الراقية منه، ولعل اللغة التي تُقتُ الى تعلمها وإتقانها هي اللغة الفارسية، ولَكَم أطرب لإيقاعها الجميل من خلال أغاني (شهرام ناظري) و(محمد رضا شجريان). والموشحات الصوفية.

أما السبب الثاني فهو الرغبة في توفير هذا الأثر الهام لقراء العربية، من المؤسف أن عددًا من الآثار الهامة لم يترجم بعد إلى اللغة العربية، و«المثنوي» كان من المفروض أن يترجم منذ مئات السنين، لكن لم يحتل موقعه في المكتبة العربية إلا بعد أن أتمه الدكتور شتا وصدر في المشروع القومي للترجمة منذ ثلاث سنوات. في مفتتح المثنوي، يصف مولانا أنين الناي الحزين المنبعث من ألم عميق لفراقه الجذع الذي اجتث منه، أنه في حنين دائم إلى الأصل، مثل الإنسان الذي يعاني الوحدة والغربة في هذا العالم بعد أن جاء إليه وحيدًا، ويعيش وحيدًا منبتّاً عن أصله، ولا يكتمل إلا بالعودة إلى الأصل والالتحام به من جديد. إنها الأفكار نفسها التي يدور حولها الديوان المكرس لشمس الدين التبريزي، ذلك الدرويش المجهول، والذي لم يرد عنه في كتب تراجم الصوفية إلا إشارات سريعة وسطور قليلة، مما يدفعني إلى الشك في وجوده أصلاً، وإنه ربما يكون من إبداع مولانا وثمرة لرؤاه، وحتى إذا كان موجودًا وسعى يومًا، والتقى فعلاً بمولانا، فربما رأى فيه ما لم يره الآخرون، وكثيرًا ما يلتقي الإنسان بآخر فيضفي عليه ما يتمناه، وما يود رؤيته، أي يصبح الإنسان موضوعًا وهدفًا لأشواق الشاعر ورؤاه وأفكاره، وهذا أمر دقيق، ربما يكون أقرب إلى الحس منه إلى العقل، لقد كان شمس

الدين التبريزي المتخيل أو الواقعي من أقوى الأسباب التي فجرت تلك الطاقة الشعرية، الروحية، الفريدة، والتي أفاض من خلالها مولانا.

يقول مولانا جلال الدين الرومي في أولى قصائده تلك الأبيات:

ولقد تجمعت ظلال الألطاف مع شمس الفضل
ومن كمال عشقه صار اجتماع الاضداد جائزًا
وعندما اختطف ريح الصبا النقاب من وجهه
انمحى خيال الجميع وصار هباءً منثورًا
لكنهم في المحو... صار وجود كل منهم مائة وجود،
فقد بدا لي المحو وجودًا والوجود محوًا

ويقول في مقطوعة أخرى بعنوان «حسناء جنت»:

ولا تغتر بعقلك فكم من أستاذ فذ... كان عمادًا للعالم
أصبح أكثر حنينًا من الجذع الحنان
وأنا الذي هجرت الروح، وكالورد مزقت الأكمام، ومن هنا
فقد صار عقلي غريبًا عن روحي
وهذه القطرات من الألباب غلبت لبحر اللب،
وذرات هذا الفتات من الروح استهلك في الأحبة
فلأُصمتْ، ولآمرْ، ولأُخْفِ هذا الشمع. هذا الشمع الذي في نوره
يتحول الشمس والقمر إلى فراشتين

وفي مقطوعة أخرى:

في البداية ولدت من عشقها، وفي النهاية أعطيتها قلبي، كالثمرة تولد من غصن ثم تُنطَّق بذلك الغصن.
إني هارب من ظلي، فالنور مختلف في الظل، وكيف يقرّ له قرار من هو هارب من ظله؟
إن طرف جديلتها لا يفتأ يقول لي: هيّا إليّ.. فاللعب على الجمال سريعًا ما يبدأ.

ويقول: **وجهها كالشمع، هل من فراشة لتحترق؟**

ويقول في مقطوعة أخرى:

وبالأمس كان الشيخ يتجول في المدينة صارخًا، لقد مللت الوحوش والفخاخ وأريد إنسانًا.
قيل له: لا يوجد لقد بحثنا عنه كثيرًا، فأجاب عين ما أطلبه ذلك الذي لا يوجد..
ومهما كنت مفلسًا، فإنني لا أقبل العقيق الرخيص،
بل ما أريده هو العقيق النادر يبدل لي..
ومهما كانت الأبصار لا تدركه، فهو يدرك الأبصار،
وأنا لا أفتأ أطلب ذاك الخفي الظاهر في صنعه
وإن شئت الحقيقة فلقد تجاوزت مرحلة كل طلب وكل رغبة، وما أريده هو أن أترك الكون والمكان عائدًا إلى أصولي..

هل من المعقول أن ينشد مثل هذا الشعر من وحي إنسان محدود بالزمان والمكان؟ هل من المعقول أن تفيض هذه المعاني من أجل إنسان له اسم وتعيين، محدد، يجيء ويغيب؟

بالقطع لا، لذلك فإنني أكثر اقتناعًا أن شمس تبريزي ليس الا وسيلة للتعبير عما هو أشمل، عن تلك المحبة الإلهية التي يفيض بها الإنسان، الإنسان المغترب عن أصله في وجوده المؤقت عبر تلك الحياة الدنيا. والذي يتطلع إلى العودة من جديد إلى الأصل. تمامًا مثل الناي الذي افتتح مولانا جلال الدين عمله الخالد، «المثنوي» بأناته الحزينة لفراق الغصن أصله وتوقه إلى العودة التي لا نهاية بعدها.

جمال الغيطاني

أديب مصري

****

الرومي يرسم معالم عهد جديد

جلال الدين الرومي، أعظم شاعر عرفته الدنيا: ذلك الشاعر الذي ترسم رسالته، في حياته وفي أعماله معًا، معالم عهدٍ جديد، خطوة جديدة في التصوف الذي كان أقدم مدرسة للصوفية والفلاسفة، والذي انبثق عن المدرسة الصوفية القديمة في مصر. والبدء الأول الأكثر شهرة لتلك المدرسة الخاصة كان إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) الأبَ لأديان العالم الثلاثة العظيمة: اليهودية، والمسيحية والإسلامية.

أعطى جلالُ الدين حياةً جديدة وصورةً جديدة للتيار الصوفي، ومن عصره انتشرت الثقافة الصوفية في العالم كله. ومبعث ذلك أنه لم يكن صوفيّاً ومتأملاً فحسب، بل كان أعظم مثقف في عصره – رجل دولة وسياسيّاً عظيمًا، على رأس القانون في بلاده (مثل قاضٍ كبير). تمتع بسمعة طيبة بين الناس بوصفه رجلاً عالي الثقافة، ذكاءً وعلمية واتساعَ وعي، أستاذًا في الإلهيات. والحقّ أنه كان رجل العصر في بلده. قرأ الشعر، وبعض قصائد العطّار، لكن تعاليمه كانت قائمة على تدريب عرفاني.

وقصة حياة الرومي غاية في الإدهاش، خاصة تيقظه للمثل الأعلى الصوفي. كان مرّة جالسًا وقد وضع إلى جانبه مؤلفاته المكتوبة باليد. وفي ذلك الوقت ما كان ثمة طباعة، ولا كتب مطبوعة، وكانت المخطوطات كنوزًا. دخل عليه رجل مرقع الثياب. ومن خلال مظهر ذلك الرجل يستشف المرء أنه شحاذ، متسول، لكنه في الوقت نفسه كان يمشي كما يمشي الملوك. ومن دون تقديم التحية، كان أول شيء يفعله أن ينحي المخطوطات التي كانت أمام الرومي.

ما كان في وسع الرومي أن يفهم سرَّ أن يدخل رجل مرقع الثياب منزل مواطن ذي شأن ثم ينحي المخطوطات التي يقيم لها صاحب البيت كبير وزن. لكنه كان في غاية

التأدب، لم يسمح لنفسه بأن يعبر عن ضيقه بهذا التصرف. كان غايةً في ضبط النفس، سأله فقط: «ماذا تريد أن تفعل؟». قال الرجل: «ماذا تقرأ؟ ألمْ تنته منه؟. لقد أفنيتَ سنيَّ حياتك بالقراءة ولم تنته منه. أنت تقرأ في وريقات صغيرة لا يمكن أن تتضمن ما يكشفه كتاب الحياة باستمرار، وقد استنفد هذا حياتك كلها. وقد بقي شيء قليل، فهل تستنفده أيضًا في هذا الذي أنت عليه؟.

قال الرومي: «بماذا تفكر، ما الذي تريد إيضاحه؟».

«أريد أن أسألك إن كنت قد تساءلت عن قصد حياتك وهدفها. هل هذه المنزلة التي تحتلها الآن، هذه المرتبة والمكانة والشهرة، هل هذه هي الهدف؟ ما الذي تريد أن تصل إليه، ما الذي تتطلع إليه؟ – ما الهدف والقصد الذي تضعه أمامك؟ – هل حياتك سريعة الانقضاء مثلما يراها المرء من الميلاد إلى الموت، مما لا يزيد عن أربعة أيام، أم أنها حياة سرمدية؟

وإذا ما كانت سرمدية، فأين يتم استمرارها؟ وإن كانت هذه المنزلة المرموقة لك اليوم، فإنها كانت ذات يوم لشخص آخر، وستكون في قابل الأيام لشخص ثالث. وحتى لو كانت شيئًا مهمًا، فإنها ليست لك على الحقيقة. وهذه المخطوطات الضعيفة عرضة للفناء ذات يوم. وإن كانت تلك حكمتك، فكم ستدوم؟

هل تصفَّحت مخطوطَ قلبك؟ هل تصفَّحتَ كتاب الحياة، لترى ما تعلِّمه الحياة على الدوام لكل إنسان؟ – لقد عبدتَ الله – هل تحدثت إليه؟ – هل رأيته؟ – هل عرفته على الحقيقة؟ – ما فائدة عبادتك؟. والدينُ الذي اتبعته طول حياتك، هل عرفت من أين جاء؟ – ما مصدره؟ – هل تريد أن تحيا كما يحيا كل شخص في هذا العالم غير عارف لماذا جيء به إلى هذه الحياة؟ – الخيل والجمال أيضًا تحيا وهي مشغولة، لكنه لا اعتداد بشغلها. الاعتدادُ بانشغال الإنسان يرجع إلى فضل هذا الانشغال. هل فكَّرتَ بقيمة هذا الذي تنشغل به، هل يمكن الاعتماد عليه؟ إن كان فضيلة عابرة، فمن غير الممكن التعويل عليه».

دفع هذا الرومي إلى أن يفكر، ودفعه إلى أن يسفح العبرات. وشخصية هذا الرجل المرقع الثياب، ماذا سكبت على قلبه! كانت أشبه بثراءٍ لا حدود له. ما كان عند الروميّ ما

يقوله. كان مأخوذًا بكل ما ذكره له ذلك الغريب الزائر، وعلى غرار ما جاء هذا الغريب الزائر، مضى ولم يترك أثرًا. وعندما غادر قال الرومي: «ذلك الإله الذي أمضيتُ حياتي في عبادته، رأيته اليوم في صورة إنسان».

كان الرجل المرقع الثياب شمسَ تبريز، وكان الرومي متأثرا جدًا بما قال له، إلى درجة أن تبعه. وأول شيء كان على الرومي أن يواجهه هو الانتقاد الشديد من كل الجهات. فليس في مقدور أحد أن يتصور كيف أن رجلاً عالي الثقافة، وعلى هذا القدر من التمكن والعلم، يمكن أن يقضي وقته ملازمًا لهذا الغريب الرث الهيئة. فأين يمشي أو يقف، يمشي الرومي ويقف، دون أن يعبأ بجمهور الناس الذين يتحلَّقون حوله مهما كان عددهم.

وانتهى سوء الطالع الظاهر هذا بتخلي الرومي عن مكانته. لم يكن قادرًا على الاحتفاظ بمنزلته مع هذا النقد المتزايد الذي يلاحقه، ولم يكن لديه الفراغ ليشرح قصته لكل الناس. كان مأخوذًا تمامًا بالاستماع إلى حديث شمس تبريز، وليس لديه الوقت للدفاع عن نفسه. أنفد وقته كله لفهم هذا الذي يقول الشيخ. وانتهى الأمر بهزة مفاجئة: في يوم من الأيام غاب شمس تبريز على نحو مفاجئ، على غرار ما جاء.

وجد الرومي نفسه وحيدًا، وليس وحيدًا، وفي عالم الفكر الذي كان يحيط به، لم يكن في طوق الرومي إلا أن يرى الفكر العميقة التي أعطاه إياها شمس تبريز. فتح عينيه على نافذة الحياة. كان ذلك أكثر مما قال، كان شيئًا أوقظ وفتح في قلب الرومي. كان نوعًا من الاتساع في إدراك الرومي ووعيه. ما كان ثقافة أو تعليمًا، كان أكثر من ذلك – كان ظاهرة.

تمثل الرومي، كالطفل، كل كلمة نبست بها شفتا شمس تبريز، وأودعها قلبه. لم يستطع إيقاف فيض الدموع الذي استمر لأيام وأسابيع. فكر إن كان ذلك خيرًا له، لكنه ليس ذلك الخير الذي اعتدنا أن نتصوره: كان أعظم خير يمكن أن يعرفه الوجود. كان رحمةً إليه ومنّة ربانية. وهو وإن كان عِلْمًا، فإنه ليس العلم الذي يعرفه الإنسان، كان فيضًا من المعرفة. كان مفتاحًا للسماء والأرض. كان شيئًا تعجز الكلمات عن شرحه.

والآن فإن الرومي فقد منزلته من ناحية، وإلى حدّ ما فقد سمعته واحترامه، في أنظار الناس وحتى في أنظار أولئك القريبين منه والعزيزين لديه، لأنهم لم يستطيعوا أن يفهموا ما هو فيه. ومن وجهة أخرى فإن الشخص الوحيد الذي يمكن أن يعتمد عليه هو شمسُ تبريز، وها هو قد غادر المكان.

وطبيعي بعد ذلك أن غدت حياة الرومي حياة تأمل، حياة تفرُّس ودرس للطبيعة، ثم حياة حبّ شديد لشخصية ربانية مثلت أمامه ذات يوم. وهكذا فإن كل ما هو ضروري للحياة الروحية دخل حياة الرومي، كل ما من شأنه أن يمهد الطريق الروحي. ولذلك غدت حياة الرومي ضرباً من الحياة تابعَهُ الصوفيةُ لعددٍ من القرون.

وأحياناً عندما تحمله فِكَرُه ومشاعره على التفكير كان ثمة نوع من الامتلاء في قلبه يجعله يطلب من الموسيقيين أن يأتوا ويغنوا، في الطريقة التأملية للغناء، وكانوا يغنون غالباً كلمات شمس تبريز والرومي: كلمات القلب الإنساني الذي أيقظه الحب الشديد، كلمات توضح الطرائق الإلهية للحياة وسر التركيز.

وتوجد مثل هذه العادة إلى الآن في الهند وفارس: إذ يحدث أحياناً أن تُغنَّى الكلمات الرائعة للشعراء العظماء كالرومي وشمس تبريز مع الموسيقا، ويجلس الناس هناك ويستمعون ويستمتعون ويستفيدون، وتُوَلَّف الكلمات وفقاً للأنغام مما يجعل الموسيقا أكثر إفادة – ويُعَدّ مثل هذا الاجتماع غاية في النقاء، عندما تعزف تلك الموسيقا المقدسة.

عنايت خان

(ترجم المحاضرة إلى الإنكليزية **كلمان باركس** وعرّبها **الدكتور عيسى العاكوب**)

****

مؤلفات جلال الرومي
الأكثر توزيعاً في أمريكا

أكدت دور النشر الأمريكية أن مؤلفات جلال الدين الرومي أكثر توزيعًا في السنوات الثلاث الأخيرة، ففي عدد الألفية لمجلة التايم أشهر المجلات في أوروبا على الإطلاق كان هذا العدد مخصصًا لاختيار أشهر شخصيات الألفية الماضية في كل المجالات من حيث الشهرة والتأثير في مسيرة البشرية، ووقع اختيار المجلة في مجال التصوف والسمو الروحي على جلال الدين الرومي البلخي الفقيه والفيلسوف والمتصوف العظيم الذي طبقت شهرته الآفاق، والذي يحتفل العالم كله هذه السنة بمئويته الثامنة.

وأقامت الهيئات والمحافل الثقافية في أوروبا وأمريكا الكثير من الأنشطة الاحتفالية على هامش هذه المناسبة.

الغريب في الأمر أن دور النشر في الولايات المتحدة الأمريكية رصدت ظاهرة شديدة الغرابة وأعلنتها أثناء الاحتفالية الضخمة التي أقيمت في واشنطن بمناسبة مئويته الثامنة، وهذه الظاهرة هي أن مؤلفات جلال الدين الرومي حصلت على لقب المؤلفات الأعلى توزيعًا في أمريكا خلال ثلاث سنوات متتالية (٢٠٠٤ – ٢٠٠٥ – ٢٠٠٦) حتى أنها فاقت توزيع سلسلة هاري بوتر صاحبة الرقم القياسي في التوزيع، فلقد وزعت اثنين من مؤلفات جلال الدين الرومي (ديوان المثنوي وديوان شمس تبريز) ٤,٦ ملايين نسخة على مدار ثلاث سنوات، بينما وزعت سلسلة روايات المغامرات هاري بوتر ٣,٩ ملايين نسخة عن المدة نفسها، وكانت هذه مفاجأة كبيرة لمعظم دور النشر في أمريكا.

صحيفة الراي الكويتية

****

مختـارات مـن
قصائد الرومي

النَّـــاي(*)

إسْـمَعِ الـشَّـكـوى من الـنَّـاي الحـزينْ
قـصـةُ الـفـرقـة يـحـكـيـهـا الأَنـيـنْ
قـطَّـعـوا الـقَـصـبـاءَ فـالـتـاع الـقـصبْ
واسـتـحـالتْ لـلـورى بـوقَ الـعـتَبْ
لـيتَ صـدري يـتـشـظّى بـالـفـراقْ
كي أبثَّ الـكـونَ سـرَّ الاشـتـيـاقْ
شـطَّتِ الـدارُ بـنـا عن أصـلـنـا
يـا حـنـيـنَ الـروحِ أَرجعْ وصْـلـنـا
قـد لـقـيتُ الـنـاس في كلّ الـبلادْ
حـزنَ مَن بـانـوا وأفـراحَ الـعـبـادْ
فـاصـطـفَـوني خِـلَّـهم من ظـاهـري
واسـتـكنَّ الـسـرُّ دون الـنـاظـرِ
مـكـمنُ الـسـرِّ خـدِينٌ لـلأَنـيـنْ
بَـيْـدَ أنّ الـنـورَ مـحـجـوبٌ جـنـيْ
لـيس بـين الجـسم والـروح حـجـابْ
أَعـطـني الـسـلـطـان أَنـفُـذْ مِ الإهـابْ
أَنَّـةُ الـنـاي سـعـيـرٌ لا هـواءْ
مَنْ تـفـتْهُ الـنـارُ لا يُـعـطى الـبـقـاءْ
مِنْ لـهـيب الـعـشق زعْـقـات الـقـصَبْ
سَـوْرةُ الـراحِ من الـعـشق نـصَبْ

(*) مختارات من الشعر الفارسي – من إصدارات مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري –

قـد غـدا الـنـاسُ خـديـنـاً لـلـمَـشـوقْ
في نـواهُ يـسـتـحـيل الـسِّـرُّ بـوقْ
مَنْ رأى سُـمّـاً وتِـريـاقـاً بـنـايْ؟
آسـيـاً، صَـبَّـاً ومـجـنـونـاً بِـرايْ؟
قَصَّ أَسـمـارَ الـدروبِ الـداميـهْ
قـيسُ لـيـلـى في جـنـونِ الـبـاديهْ
مَنْ سِـوى المجـنـونِ يـدري سـرَّنـا؟
مـثـلـمـا الـنّـطقُ يـنـاجي أُذْنَـنـا
لـولا آهُ الـنـايِ مـا كـان الـبـشـرْ
شـهـدَهم شـاروا ولا كـان الـثـمـرْ
دورة الأيّـام شُـلَّت بـالحـزَنْ
قـاسـمـتـنـا الـشـوقَ عَـوْداً لـلـوطنْ
إنْ تـكُ الأزمـان ولَّتْ لا تَـخَفْ!
لـيـسَ إلاَّكَ مـلاذٌ قـد وَقَـفْ!

****

بَقاءُ الفَناء(*)

مــاءُ الحــيــاةِ عِــشْــقَــنــا أَحْيِ بِهِ
أَنْــبِضْ بِهِ عِــرْقــاً لــنــا يَــحْــيــا بِهِ
اقْــرِنْ صَــبــوحــاً بــالــغَــبُــوقِ تَلأْلأَتْ
إِبــريــقُــهــا نُــورٌ وخــمــرٌ مــا بِهِ!
يــا مُــبــدعــاً زَخَــمــاً لِــعَــهْــدٍ مُــقــبلٍ
أُنْــفُــذْ إلى عِــرْقٍ لــنــا رُوحي بِهِ
جــامــاً عــلــى الأَفلاكِ ارفعْ عــالــيــاً
مِنْ عــالَــمَــيْــنــا يَــنْــجَــلي الــنُّــورُ الــبَــهي!
يــا مَنْ تَــصِــيْــدُ الــعــقلَ مِــنّي راضــيــاً
وَرْدُ الــغَــضى بِهِ من شِــبــاكِكَ مــا بِهِ..
اغْــسِلْ فــؤادي مِنَ يــدَيْكَ مَــحــبَّــةً
أُجْلُ الــقَــوامَ يَــشِفُّ مــا اســتَــحْــيــا به!
أَوطــانُــنــا قــد كُــثِّــرتُ وُجْــهــاتُــهــا
سِــتّــاً بَــدَتْ في واحــدٍ أَنْــعِمْ بِهِ
لا نَــعْــلَــقُ الأَوطــانَ في قِــبْلاتِــنــا:
وَكْــرُ الــفَــنــا دارٌ لــنــا عَــشِّشْ بِهِ!

****

(*) المرجع السابق.

سَماحُ الصِّفات(*)

إنّهُ الــعــشقُ مَــرَّةً بــعــد أُخــرى
قــد بَــراني، فــكلُّ جــســمي ريــاحُ!
طـاحَ مـنّي الـسَّـقـامُ فَـضْـلـةَ عـيشٍ
غــادَرَتْــني، فــكلُّ روحي مُــبــاح...
شِـلتُ قـلـبي بـإِصـبـعي من شُـغـافي!
كـيفَ يـحـيـا المُـولَّهُ الـمُـسـتـبـاح؟
إنَّ عَــيــنـي غــدَتْ لــعــيــنكَ مــراَ
ةً، فــمِنْ نــاظِــري يُــطِلُّ الــصُّــبــاح
لا تُــحَــدِّقْ بــقــامــتي وسِــمــاتي
صِــرْتُ دَفْــقــاً من الــسَّــنــا يَــنــداح
مُــذْ عــرفتَ الــقــوامَ مــنّي سـلـيـمـاً
قــد تــغــوَّلْتُ، فــالــصِّــفــاتُ سَـمـاح!

****

(*) المرجع السابق.

(١) خلل في الوزن.

رحيلٌ إلى لا مكان

يـــا عـــاشـــقـــاً! يـــا عـــاشـــقـــاً!
عن كَـــونـــنـــا هـــيَّـــا ارتحلْ!
الـــطَّـــبلُ أَرعـــد في الـــسَّـــمـــا
في مـــســـمع الـــرّوحِ اعـــتَـــمل
جَـــمَّـــالُـــنـــا نـــادى الـــسَّـــفـــرْ
بـــقـــطـــارهِ ضُـــرِب المـــثَل
شـــــاءَ الحـلالَ تـــــأهُّـــبـــــاً
فـلـمـاذا سَـفْـرنـا قـد غـفَل؟[1]
أصـــواتُ: هُـــبُّـــوا، والجـــرسْ
تـــدعـــو الـــرحـــيلَ عـــلى عَـــجل
والـــنَّـــفْسُ مِنْ بـــعـــد الـــنّـــفَسْ
فـي لا مـــــكـــــانٍ تـــــرتحِل
أُنْـــظـــرْ شـــمـــوعـــاً تـــنـــقـــلبْ
سِـــتـــراً مِنَ الـــنَّـــيْل انـــســـدَل
خَـــلـــقـــاً مِنَ الـــغـــيب انـــفـــرجْ
قـــد صـــار عـــيـــنـــاً في حُـــلل
نـــومٌ عـــمـــيقٌ قـــد عـــرا
من فَـــلْك قُـــبَّـــتِـــنـــا وحَلّ

تَـــبًّـــاً لـــعُـــمْـــرٍ قـــد قَـــصُـــرْ

واحـــــذرْ سُـــبـــاتـــاً قـــد ثَـــقُل

يـــا قـــلبُ ســـرْ نـــحـــو الـــمُـــحَبّ

يـــــــــــــا حِـبُّ لاقِ الحِـبَّ، قُـل

يـــا حـــارســـاً، أنتَ الـــيَـــقِظْ

حـــاذرْ إذا الـــقـــدرُ اغـــتـــفَل!

****

من أَنا؟

بمَ أَعـــمل؟ أَخي المـــسـلم، أَإِخـــواني أَغـــيـــثـــوني
أنـــا لـــستُ مـــسـيـحـيًّـاً، يـــهـــوديًّـاً، أَعـــيـــنـــوني
مـــجـــوسيٌّ؟ فـــتى الإسلام؟ نـــفـــسي لـــستُ أَعـــرفـــهـــا
أَمِنْ شـــــرقٍ؟ أَمِنْ غـــــربٍ؟ أَمِنْ بَـــرٍّ؟ أفـــيـــدوني!
أَمِنْ خـــامـــاتِ أرضـــيـــنـــا؟ أَمِ الأفلاك في دَورِ؟
فـــإني لـــستُ من تُـــربٍ ولا مـــاءٍ لـــتـــســـقـــوني
ولا ريحٍ، ولا نـــــارٍ، ولا مِ الـــــعـــــرشِ أوفـــــرشٍ
ولا كَـــونٍ، ولا نـــاحٍ، ولا هـــنـــدٍ، ولا صـــينِ
بـــخـــور آســـانَ لا وطـــني، عـــراق الـــعُـــرب لا عـــطَـــني
أَيـــا عـــجمٌ وبـــلـــغـــارٌ وســـقـــســـينٌ فـــخـــلُّـــوني...
ولا دنـــيـــا، ولا عُـــقـــبَى، ولا نـــارٌ لـــتـــكـــويـــني
وآدمُ لـــيس من شـــأني، وحـــوَّا لـــيس تَـــعـــنـــيـــني!
ولا الـــفـــردوسُ أَو رضـــوانُ أو غـــيبٌ يـــجـــاذبـــني
مـــكـــاني اللاّمـــكـــانُ الـــرّحبُ في دارٍ تُـــمـــنّـــيـــني..
فلا جـــســـدٌ ولا روحٌ، (هُـــوَ) روحي فـــيُـــحـــيـــيـــني!

****

(١) تعريب الدكتور عناية الله إبلاغ الأفغاني. جلال الدين الرومي بين الصوفية وعلماء الكلام.

أنقذوا الروح من شهوات النفس[1]

أنقذ الروح الطاهرة مما يؤذيها من شهوات النفس. ما دمت منهمكًا في الشهوات فإبصارك مظلم، ولا أمل لهدايتك إلى قصد السبيل.

الإنسان الذي يتعلق بالمادة بحيث يغفل عن نداء الروح فهو كالجمل الذي يحمل فوق ظهره الورد (كناية عن الروح) ومع ذلك لا يرى إلاّ الشوك ولا يسعى إلا إليه.

من قُتلت فيه شهوات الحس يكون له ذوق روحي يدرك به النور والحق.

الحياة لا ترتكز على الماديات فحسب، بل فيها تطلُّعٌ إلى ما وراء المادة، إلى متى تعتبر طعام الحس سر حياتك؟

ليست هناك حياة حقيقية إلا بالعرفان والحب، أما حب الدنيا والإقبال عليها مهما كانت عزيزة على عشاق الدنيا فإنها تؤدي إلى هلاك الروح، لأنها في الحقيقة احتضار للروح.

لا تترك الشيطان يسرق منك متاعك الغالي ويصرف نظرك إلى المغريات إذ بذلك تضيع بضاعتك (أيام عمرك).

قتل النفس الحسية في الإنسان يشبه اقتلاع الإبرة من العقرب والأنياب من الحية. إذا كنت تريد قتل النفس الأمارة بالسوء فاقتل النفس الحسية ليتحصل لك (لروحك) النجاة.

الحياة الروحية تحتاج إلى الحرارة والماء، وحرارتها الدمع وماؤها لهيب القلب وفوران الشوق إلى المبادئ العالية.

إن أسير الشهوات لا يدرك هذا الأسر فلا بد له من مرشد يأخذ بيده روم الخلاص

من سيطرة اللذات الحسية، وحينذاك يعرف ما كانت عليه نفسه من سوء الحال.

ادفع عنك تلك الصلة الكثيرة بالمادة التي تحول بينك وبين كشف الروح، إن نفحات الروح تنير ظلام الحس، كما أن قميص سيدنا يوسف على نبينا وعليه السلام ألقي على وجه سيدنا يعقوب فارتد بصيراً.

أهل الحس الغارقون في اللذات لا ينتبهون إلى الرجال الكُمَّل.

اشتغل بدفع الآلام واتبع الأب الذي يهديك إلى النعيم الأبدي (آلام القوة الظلمانية، والأب القوة الروحانية) فالنفس تذهب بنا إلى ما تريده: يشير بذلك إلى آية (وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ) (سورة القارعة/ ٨-١١).

****

(*) من روائع الأدب الفارسي - تعريب الدكتور بديع محمد جمعة - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٣.

العارف(*)

العارف بالله ثمل بلا شراب، العارف بالله شبع بلا شواء
العارفُ والهٌ وحيران، العارف ليس به حاجة إلى طعام أو سبات
العارف سلطان وإن لبس الخَلَق، العارف كنز وإن قطن الخرابات
العارف ليس من ريح وتراب، العارف ليس من نار وماء
العارف بحر بلا شطآن، العارف يمطر درّاً بلا سحاب
العارف يملك مئات الأفلاك والأقمار، العارف يملك مئات الشموس
العارف عالم بعلم رباني، العارف ليس فقيهًا عن طريق الكتاب

خبر عن حبيبنا!

يا ربيع العاشقين، ألديك أي خبر عن حبيبنا؟
يا من حملت منك الخمائل، وضحكت بفضلك الحدائق
يا ريح الناي الجميل الألحان، لتسعف العشاق
ويا من أطهر من الروح، في النهاية أين أنت، أين؟
كم تملكتني الحيرة يا فتنة الروم والأحباش، فرائحتك العطرة هذه
كانت كرائحة قميص يوسف، أم أنها رائحة رداء المصطفى؟
يا من حلوٌ كل ما تقوله، ويا من عذبٌ كل ما تثيره من مشاكل
فشهرك حلو، وعامك حلو، يا من أصبح الشهر والسنة تابعين لك!
وجهك حلو، رائحتك حلوة، ذؤابتك حلوة، شعرك حلو
شفتك حلوة، طبعك حلو، وبفضلك صار حالنا حلواً
فهل أنت كلك روح، أم أنك خضر الزمان؟
أم أنت ماء الحياة؟ فمنك كل ما في الوجود من نشوء ونماء!
انظر! فإن مائة سوسنة ومائة ياسمينة من بستان الروح
قد عزمت مثلها مثل النرجس الحور العين على التوجه صوب بلاد الخطا
لقد جمّل الأفاق، وزين العشاق
ففي كل لحظة تحظى مائة شمس ومائة قمر من وجهه بالضياء والإشراق!

****

أيها الأحبة

أيها الأحبة، أيها الأحبة! لا تجنحوا إلى الفراق
ولا تولّوا الأدبار امتثالاً للهوى والعجب
إن كنتم على وفاق واتحاد، فلا تكونوا متفرقي الأهواء
لقد أمرنا بالوفاء، فلا تكونوا عديمي الوفاء

ليغص بالهموم

ليغص بالهموم والأحزان قلبٌ عديم الوفاء
ولتجتث يا إلهي من العالم عديم الوفاء
أما رأيت أنه لم يتذكرني أحد قط
غير الهموم والأحزان، فألف حمد وشكر للهموم والأحزان!

حرقة قلوب

حرقة قلوب العشاق تنتج شررًا
وآلام قلوب الوالهين تنتج أثرًا
ألم تسمع بأن آهة المكلومين
تجد لها صوب حضرة رحمته طريقًا ومعبرًا؟!

قلت

قلت: عيني!، قال: اجعلها على طريقه دائمًا
قلت: كبدي!، قال: املأها بالآهة من أجله دائمًا
قلت: قلبي! قال: ماذا بقلبك؟

(*) الشمس المنتصرة: دراسة آثار الشاعر الإسلامي الكبير جلال الدين الرومي. تأليف البروفيسورة الألمانية الراحلة آن ماري شيمل، ترجمها عن الإنكليزية الدكتور عيسى العاكوب.

قلت: الغم من أجلك، قال: حافظ عليه دائمًا

✷✷✷✷

ذلك الذي يُخرج الورد من قلب الأشواك(*)

ذلك الذي يجعل الوردَ والشجر نارًا
قادرٌ أيضًا على أن يجعل النارَ بَرْدًا وسلاما.
ذلك الذي يخرج الوردَ من قلب الأشواك
قادرٌ أيضًا على أن يجعل الشتاءَ ربيعا.
ذلك الذي به يتحرّر كلُّ سَرْوٍ (يظلّ دائمَ الخضرة)
قادرٌ على أن يجعل الألمَ سرورا.
ذلك الذي به يغدو كلُّ معدومٍ موجودا
ماذا يضيره لو أبقاه دائما؟

التمس معنى القرآن من القرآن وحدَه،
ومن شخصٍ أضرم النارَ في هوَسه وهواه،
وصار قربانًا للقرآن مزدريًا لنفسه،
حتى صار عينُ روحه قرآنا.
والزّيتُ الذي صار كلّه فداءً للورد
سواءٌ أشممتَ منه الزيتَ أم الورد!

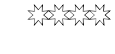

قُرِع طبْلُ الوفاء، ونُظّف طريقُ السماء،
فرحُك هنا اليوم، فماذا يبقى لغد؟
جيوشُ النهار هزمت جيش اللّيل،

والسّماء والأرضُ مملوءتان باللّمعان والصّفاء

آه، أي فرح ينتظر من نجا من عالم العطور والألوان هذا!

لأن وراء هذه الألوان والعطور ألوانًا أخرى في القلب والروح.

آه، أي فرح لهذا الروح وهذا القلب اللذين نَجَيا من أرض الماء والطين،

رغم أن هذا الماء وهذا الطين معدن الكيمياء.

☆♡☆♡☆

كل لحظةٍ يصلُ صوتُ العشق من الشمال واليمين؛

نحن ماضون إلى الفلك، فمن لديه عزم التنزه؟

كنا حينًا في الفلَك، وكنا أصدقاء للملك.

فدعنا جميعا نعد إلى هناك، فتلك مدينتنا.

نحن أسمى من الفلك، وأعظم من الملك.

فلماذا لا نمضي إلى ما بعدهما؟ - إن منزلنا هو الكبرياءُ

أين الجوهرُ الخالص من دنيا التراب؟

لم نزلت إلى هنا؟ - تحمَّل [ارحل] من هنا، أي مكان هذا؟

الحظ الحسن حبيبُنا، وتقديم الروح مذهبنا، وأمير قافلتنا فخر الدنيا المصطفى!

الخلق مثل طير البحر، يولدون من بحر الروح.

كيف يمكن هذا الطائر، الآتي من ذلك البحر، أن يجعل إقامته هنا؟

لا، نحن دُرَرٌ في قلب البحر، مقيمون جميعًا فيه.

وإلا فلم يتعاقب الموجُ من بحر القلب؟

جاءت موجة «ألستُ بربّكم» فحطمت مركب الجسد.

وعندما يتحطم المركب ثانية، تكون نوبة الوصل واللقاء.

☆♡☆♡☆

(*) المجالس السبعة، آفاق جديدة ورائعة في الرمزية الإسلامية - تأليف جلال الدين الرومي - تعريب: الدكتور عيسى العاكوب - دار الفكر - دمشق ٢٠٠٤.

(١) إلى هنا بالعربية في الأصل.

في يم الإخلاص، ذبت كالملح.

ليس عندي مزيدُ عقوقٍ ولا إيمان، ولا يقينٍ ولاشك

في قلبي نجم يسطع.

وفي ذلك النجم توارت السماواتُ السبع.

هيّا فقد جاء، جاء، ذلك الذي لم يغادر.

هذا الماءُ لم يبعد عن النهر.

إنه نافجة المسك، ونحن عبيره.

هل رأيتَ المسكَ يومًا مفصولا عن رائحته؟

✱✱✱✱

(١) حديث شريف، الجامع الصغير، ١/ ٧٨ [الأصل].

(٢) إشارة إلى تجلي الحق سبحانه للأرواح وهي في عالم الذر منذ الأزل وقوله لها: «ألست بربكم»؟

من أسراره، نوّرنا الله بمشرق أنواره(*)

«الحمد لله مقدر الكائنات وما فيها، ومدبر الموجودات وباريها، مُعيد الخلائق على صعيد الحشْر ليوم النشر ومبديها، مُجري الفلك الدوار في لُجَّة الخضراء والفُلك على صفحات الماء ومزجيها، مُظهر كتائب السحائب على أكناف الهواء ومنشيها؛ فإذا سلَّت البروق سيوفها على أعجاز العوادي وهواديها، أرسلت سهام الأقطار إلى أغراض الأوطار ومراميها، ونادى خطيب الرعد على منبر الغيم: تبارك الله «مُجريها ومُرسيها»؛ العليم الذي لا يغرب عن علمه خطرات الأقلام في مدارجها ولا خطوات الأقدام في مجاريها؛ البصير الذي لا يخفى على بصره أصناف الدرر في أعطاف الأصداف ومطاويها؛ السميع الذي يسمع بريد أصوات الأنام في غلبات الظلام ودياجيها وترصيع الألحان من الأطيار على أغصان الأشجار ومراقيها؛ المتكلم لكلام قديم أزلي جل عن نغمات اللغات وحركات اللهجات وتقدَّس عن رسوم رفع ظروف وحروف يواليها في القراءة تاليها.

ونشهد أن لا إله لا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله،(ﷺ)، ورضي الله عن الصحابة الكرام، خصوصًا على أبي بكر التقي، وعلى عمر النقي، وعلى عثمان الزكي، وعلى عليّ الوفي، وعلى جميع المهاجرين والأنصار، وسلَّم تسليمًا كثيرًا[1]».

أيُّها الملك والمليك، أوصل أرواح المشتاقين للقائك الذين ينشُدون العبور من بحر الوجود بسفينة الاجتهاد بسلامة وسعادة، إلى ساحل فضلك ورحمتك، وارزق المتألين لفراق لقائك الصحة والعافية الأبدية بمرهم أمانك؛ وافتح عن قلب كل إنسان بمشهد

(١) قائلها مجهول [الأصل].

الأنوار والأزهار في بستان الغيب؛ واحفظ سُراةَ الخلوة في ظلمات الهوى والشهوات من الضلال والزيغ. يا الله، يا من بأمر (اهْبِطُوا) (البقرة/ ٢-٣٨) حبست أطيار أرواحنا بشَرَك القالب الترابي وفَخِّه، بكمال فضلك هيئ لنا طريقًا من حقل الأشراك الصعب هذا إلى سعة عالم الغيب، يا إله العالمين ويا خير الناصرين.

نبدأ الكلام ونشرع في الرسالة بحديث من أحاديث الرسول الصادق، محمد المصطفى (ﷺ):

روي في أصح الأخبار عن أفصح الأخيار أنه قال: «إن لله تبارك وتعالى عبادًا أمجادًا محلهم في الأرض كمحل المطر، إن وقع على البَر أخرج البُر، وإن وقع على البحر أخرج الدُّر»[١].

هكذا يقول مصلح كل فساد، ومفتاح كل مراد، وملاذ المطيع والعاصي، ودليل الداني والقاصي (ﷺ): إن لله خالق الأكوان والزمان مُبدع طِباق السماوات السبع، المالك بلا حَيف، السلطان بلا كيف، في عالَم الماء والطين، عِبادًا أطهر من الروح والقلب.

أولئك المجذوبونَ بـ «ألستُ»،
ثملون منذ عهد «ألستُ»[٢]
مقيَّدو الأقدام في دار الآلام،
مبسوطو الأيدي في تقديم الأرواح
ومنذ أن تذوقوا شربة «نفي الذات»،
تحرَّروا من الخوفِ والرجاء
تحرروا من العين والغين، ولم
يقيّدوا القلوبَ بالأزل والأبد
وقد صاروا سريعين، وهكذا بخطوة واحدة
تجاوزوا نهر الحدوث
نهضوا للتصدر
وجلسوا على عرش السيادة
فانون عن أنفسهم، باقون بالحبيب،

وهذه مفارقةٌ، أن يكونوا فانين وباقين
هؤلاء هم طائفةُ أهل التوحيد،
ومن عداهم جميعًا عبادٌ لأنفسهم[1]

الحق تعالى عندما يجعل عبدًا لائقًا بمقام القرب ويذيقه شراب لطف الأبد، يُصفّي ظاهره وباطنه من الرياء والنفاق، فلا يبقى لمحبة الأغيار في باطنه متسع، ويغدو مشاهدًا للطف الخفي، وينظر بعين الاعتبار في حقيقة الكون، وينظر في المصنوع إلى الصانع، ويصل من المقدور إلى القادر. وإذ ذاك يمل المصنوعات وينشغل بمحبة الصانع. لا يبقى للدنيا خطرٌ لديه ولا يبقى للعقبى مرورٌ بخاطره. يغدو غذاءه ذكر المحبوب، ويتباهى جسده بهيجان الشوق إلى المعبود، ويذوب روحه في محبة المحبوب، لا وجه لديه للإعراض ولا عدة للاعتراض. وعندما يموت وتخرج حواسه الظاهرة عن دوران الفلك، تمتنع كل أعضائه عن حركة طبيعته، وهذا كله تغير للظاهر، لكن الباطن مملوء بالشوق والمحبة «أموات عند الخلق، أحياء عند الرب» لدى الناس أموات، ولدى الحق أحياء.

يقول: هؤلاء العباد هم رحمة للعالم، بهم يُدفَع البلاء، ملاذٌ للخلق، ببركتهم يفتح باب الرزق، ويغلق باب البلاء. هم مثل الغيث حيثما حلوا كانوا مباركين، بركة، كنزًا دفاقًا، مصدرًا للحياة، ماء للحياة، فالغيث عندما يسقط على الأرض يثمر قمحًا ونعمة، وعندما يسقط على البحر يصنع أصدافًا مليئة بالدُّر، ويُظهر الدر والجوهر.

يقول بعض المحققين: إن المراد من هذا «البَر» قالب الإنسان وصورته اللذان يزيَّنان ببركات صحبة الأولياء، وإن العمل والزهد والتضرع والشفقة والمرحمة والخيرات والصدقات والمساجد والمآذن والمعابد والجسور والرُّبُط وغير ذلك، هذه الخيرات الظاهرة في العالم قد حصلت من صحبة أولئك العباد، وقد سُرِقَت منهم، وتُعُلِّمت منهم. أما المراد من المطر الواقع على البحر فهو إحياء القلوب وتمكين القلوب من الإبصار بصحبتهم، وتزيين عروس الروح بجواهر العلم والمعرفة والشوق والذوق:

أولئك الأعزاء، الذين هم جَفنُ العَين،
هم في الحانِ «قابَ قوسين»

في عَقَبة المجاهدة حينًا
وفي مجلس المشاهدة حينا
هم الخمرةُ، وهم الثملون أيضا،
وهم في الوقت نفسه معدومون وموجودون
صاروا جميعًا معدومين من غَيرة الوجود،
وعلَمُ الاستغناء في أيديهم
أجسامهم حتى ولاية آدم،
أسماؤهم حتى نهاية العالم
صَمتٌ أكثر موافقة من الروح،
حموضة أحلى من السُّكر
بائعون للأرواح في بلاط العدَم،
مرتدون لخِرقة خانقاه القِدم
وكلهم من الافتقار والوله
صاروا «لا» في جمال «إلا الله»
رأيت يومًا نورًا جاريًا فيه
مثل القمر الجاري في الفَلَك
ولأنه كان يعمل في تلك الولاية البعيدة،
فإن خِرَقهم مملوءة بالنور من ضيائه
أردت أن أسلك ذلك الطريق،
أردت أن أغدو رفيقًا لذلك
وإن عاشقًا من ذلك الصّف السقيم الصحيح
مَثَل أمامي صامتًا لكنه فصيح

وضع يده علي وقال: قف، حتى هذا المكان الذي تستقر فيه، ليس هو مكانك طِر من جديد نحو «لا يجوز ويجوز» إن الخيط في يد الصورة الآن.

---

(١) ديوان سنائي، ص٦١٣ - ٦١٤ [الأصل].

حتى أقاموا عند باب حجرة القلب، وأخرجوا من قلوبهم كل ما سوى الله من جنة ونار، وأرواح وأجسام وغير ذلك، ليس لهم شأن سوى طلب الحق. وهكذا ظهرت ثلاثة أشياء: الطالب والطلب والمطلوب. ولكنهم عندما وصلوا إلى هذا المقام، نظروا فرأوا زِنار المسيحي «ثالث ثلاثة» على رقبة وجودهم. وسمعوا من سُرادقات العزة خطاب: (وَلا تَقُولُوا) (النساء/ الآية ١٧١)، فتوافر لهم كثير من الأبصار والبصائر المتقابلة، وهكذا فَني الطالب والطلب، وبقي الفرد المطلق الباقي.

كنت أشرب من ذلك الذي الروح خمرته،
ثملتُ من ذلك الذي العقلُ مجنون به،
جاء إليَّ دخان، اشتعلت فيَّ نار،
من ذلك الشمع الذي الشمس فراشَتُه

وعندما طلع لمعان الينبوع الأعظم لجلال قدس الحق من مشرق (أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ) (الزمر/ ٣٩-٢٢)، لم يبق حس ولا خيال ولا وهم ولا عقل.

أيها الجسد، ليس لديك قدَمُ هذا
الطريق، فلِمَ تسعى؟
أيها القلبُ، إنك لا تعرف موضعَ
ذلك المعشوقِ، فلِمَ تبحث؟
ما الحيلة إزاء هؤلاء السالكين المخالفين،
وقد أخذ التّنفّج والادعاء منهم كل مأخذ
.....
أنت روح وخِلتَ أنك شخص [جسدٌ]،
أنت ماءٌ وخِلتَ أنك إبريق
كل شيء إذا أنت لم تبحث عنه لا تجده،
إلا هذا الحبيب إذا أنت لم تظفر به لا تبحث عنه
اعلم يقينًا أنك لست إياه، ولكن

عندما لا تكون موجودًا فإنك هو[1]

يكون الإنسان في البدء نُطفة، ثم عَلقة، ثم مُضغة، ولكن الحق، تعالى، يسلط ملكًا على أرحام الأمهات يسمى ملك الأرحام. يأتيه الأمر أن: أيها الملك، صوِّر. ويكون ذلك الملك قد أخذ الصورة من اللوح المحفوظ، ثم يقف خارج الرحم، مقابل الرحم، ويصور بأمر الله، عزّ وجلّ. فإذا ما أتم رسم الصورة، جاء الأمر أن: أيها الملك، اذهب مرة أخرى، فإن لدينا سرّاً معه، وبعد ذلك يركب الروح فيه، ولا أحد البتّة يعرف ما الروح. وبعد ذلك يأتي الأمر أن: اكتب رزقه وعمله، واكتُب ما إذا كان شقيّاً أو سعيدًا.

وعندما خلق آدم، أمر الروح بأن تدخل رأسَه. رأسه الذي هو من طين، صار لحمًا وعظمًا وجلدًا، والباقي كله طين. فتح عينه فرأى جسمه كله طينًا، وذلك ابتغاء أن يرى الأفضال كلها من الله.

يحكي في قصة «عازم» – الذي كان من بني إسرائيل – أنه خرج يومًا من منزله الفاسد، وانطلق إلى الصحراء، حتى وصل إلى مكان، فرأى قومًا زرعوا وتعهدوا زرعهم حتى اكتمل وعلا وامتلأ بالحبوب، وصار لائقًا بالحصاد والجمع. ثم أتوا بالنار فأحرقوا ذلك الزرع كله.

فقال في نفسه: يا للعجب، حَرقُ مثل هذا المحصول لا يجعلهم يتحسَّرون؟ اجتاز ذلك المكان، ومضى حيران متعجبًا حتى وصل إلى مكان، فرأى رجلاً يحاول أن يرفع صخرة فلا يستطيع رفعها ولا يستطيع تحريكها من موضعها، فأتى بصخرة أخرى فوضعها بجانب الأولى لكي يرفع الاثنتين معًا. حرك فلم يستطيع رفعهما. قال [عازم]: يا للعجب، عندما كانت واحدة عجز عن تحريكها، الأن وقد صارتا اثنتين وأثقل من ذي قبل كيف يستطيع تحريكهما من موضعهما؟ – مضى الرجل فأتى بصخرة ثالثة فوضعها إلى جانب

(١) حديقة الحقيقة، ص٤١٨، البيت ٢ [الأصل].

الاثنتين. وعندما صارت ثلاثًا رفع الثلاث ومضى.

رأى عازم هذه العجائب كلها ومضى من جديد في الصحراء، فرأى شاة يقوم على رعايتها خمسة أشخاص. كان أحدهم قد امتطى ظهر الشاة، والثاني قد ركبته الشاة، والثالث أمسك بضرع الشاة وأخذ يحلب، والرابع أمسك بقرني الشاة، والخامس قد أمسك بكلتا يديه بإلية الشاة. وليس لدى عازم الإذن بالسؤال.

مرَّ [عازم] من ذلك المكان، ومضى، فرأى كلبةً، في بطنها جِراء تنبح معًا.

قال عازم: أي عجائب هذه التي رأيت؟

وعندما وصل إلى مدخل إحدى المدن رأى شيخًا تقدمت به السن. فقال: أيها الشيخ، في هذه الطريق التي سلكتها رأيت عجائب. فقال [الشيخ]: وماذا رأيت؟

فقال: رأيت أناسًا زرعوا وعندما استحصد زرعهم أضرموا فيه النار.

قال [الشيخ]: هذا مثال شاء الله، تعالى، أن يظهره لك. فأولئك قوم فعلوا الطاعات، لكنهم آخر الأمر انشغلوا بالمفاسد والمعاصي. فأحبط الله تعالى أعمالهم (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً) (الفرقان/ الآية ٢٣).

قال [الشيخ]: وماذا رأيت أيضًا؟

قال: رأيت رجلاً أراد أن يرفع صخرة، فلم يستطع.. إلى آخر القصة.

فقال [الشيخ]: هذا مثل رجل اقترف ذنبًا واحدًا. كان ذلك الذنب عنده عظيمًا وكبيرًا وكان يخاف، ولم يستطع حمله، ومن ذلك التفكير اقترف إثمًا آخر، وقد صار لديه أخف قليلاً. حتى إذا صارت تلك الصخرة اثنتين رأى أن يحركها، وعندما كانت الصخرة الأولى وحدها لم يستطع أن يحركها من مكانها. وبعد ذلك مرة ثالثة، اقترف ذنبًا وفسادًا آخر، فصارت الذنوب كلها سهلة عليه وخفيفة.

---

(١) ديوان سنائي، ص١٨٢ – ١٨٥ [الأصل].

قال [عازم]: أيها الشيخ، رأيت شاة بتلك الصفات التي حكيت.

فقال [الشيخ]: تلك الشاة مثل الحياة الدنيا. أما أولئك الذين كانوا راكبين على ظهرها فهم الملوك، وأولئك الذين كانت الشاة راكبة عليهم هم الدراويش الذين يسألون الناس شيئًا، وذلك الذي أمسك بإليتها مثل للإنسان الذي قد انتهى عمله، ودنا أجله، ولم يبق من عمره إلا القليل.

كم حُزنُك من أجل الثَّوب
وقد يكون ذلك الثوب كفَنا[1]

وذلك الذي رأيته قد أمسك بقرني الشاة مثلٌ للإنسان الذي لا يعيش في الدنيا إلا بمشقة كبيرة وألم. وأما أولئك الذين أمسكوا بضرعها وأخذوا يرضعون فهم التجار وأصحاب رأس المال والربح.

وقال: رأيت كلبة جراؤها في بطنها.

قال [الشيخ]: هذا مثل أولئك الذين يقولون كلامًا في غير أوانه. إنهم مثل جراء الكلبة التي في بطن أمها الآن وتنبح.

إن كان لديك في الرأس والعين عقلٌ وبصر
فبع اللسانَ واشترِ الرأسَ من السّيف
قطَعَ السمك طمَعَه باللسان الناطق
ولذلك لا يُقطَع الرأس عن جسم السمك[2]

قال عازم: أيها الشيخ، فهمت ما قلته. والآن أين منزل فلانة التي تشترى بالمال، وفي أية محلة؟ – يقولون: إنها جميلة جدًا، وقد جئت مستهامًا بها. فبصق الشيخ ثلاث مرات في وجه عازم وقال: أيها السيء الحظ، قدمت لك النصائح فلم تصغ إليها، وضربت لك الأمثال فلم تلتفت إليها. أنا لست شيخًا، أنا ملك الموت، ظهرت بهذه الصورة، وفي هذه الساعة آخذ روحك بأمر الحق، ولن أمهلك حتى لتشرب الماء. وفي الحال بدأ عازم بالاصفرار والذوبان. وقبض روحه حالاً بأمر رب العالمين.

يا أصحاب المال، الاعتبار الاعتبار،
يا أصحاب القال، الاعتذار الاعتذار

اتَّعظوا، يا من حلَّ سوادُكم محل الموعظة،
اعتذروا، يا مَن بياضُكم قد نبتَ فوق العِذار،
قبل أن يعجز هذا الروح المعتذرُ عن النطق،
قبل أن تعجز هذه العين المبصرة للعِبرة عن العمل
كان في الدنيا الكثير من الملوك الذين في فلك المُلك
بدَّدت سهامُهم الثُريا وتجاوزت أسنَّتُهم الجوزاء
تأمل الآن حالهم فإنهم مثل بنات النعش في قبضة الردى؛
سهامهم مبعثرة، ورماحهم مُكسّرة
إن فيك حيوانًا وشيطانًا ورحمانًا،
وكل ما تكون عليه من عدد السنين هو رائحةُ يوم الحساب،
فانتظر صدمة الصور إسرافيل لكي
تتوارى صورتك الجميلة وتظهر سيرتُك القبيحة[١]

السيرةُ التي كانت غالبة على وجودكَ [في الدنيا]،
ستكون واجبة أيضًا في تصوير حَشرك[٢]

أما العبد الذي يتوب توبة نصوحًا ولا يعود إلى مقارفة الذنوب، فإن المولى تعالى، يحيل معاصيه كلها إلى طاعات (فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ) (الفرقان/ الآية٧٠). أي تاجر يكون أربح من هذا، أن تحول معصية العبد إلى طاعة، ويغدو الجفاء وفاء، والبعد قربًا، والغربة معرفة؛ يكون عند الباب فيدخل إلى صدر المجلس. جاء عن الرسول (ﷺ) ما معناه: لا شيء أكثر إدخالاً للسرور في قلب ابن آدم من أن يصل إلى وسط صحراء مترامية الأطراف، فينزل ويعقل ناقته ويفترش الثرى ويتوسد يده وينام ساعة. وعندما يستيقظ من نومه ينظر فيجد ناقته قد ولَّت وعليها زاده ونعله وقماشُه، وقد مضت الناقة وحملت معها كل شيء. يجري يمينًا حينًا ويسارًا حينًا آخر، فلا يرى أي أثر أو علامة للناقة. فيُسلِم قلبه للتهلكة. يعود إلى المكان الذي افتقد فيه ناقته، وعلى حين غرة يرى الناقة والهجار في يدها ورجلها، يتوجّه إليها ويردد مبتهجًا: «اللهم، أنت عبدي وأنا ربك»، من

فرط السرور أخطأ، أراد أن يقول: أنت ربي، وأنا عبدك.

وبعد ذلك قال الرسول (ﷺ) ما معناه: الله تعالى أكثر سرورًا بتوبة عبده العاصي من ذلك الرجل الذي وجد ناقته فابتهج بالظفر بها.

ومعنى سرور الحق بتوبة العبد أنه عندما يُسَرُّ العبد بشيء فإنه يجعل ذلك الشيء عزيزًا، وهكذا أيضًا يكون ذلك الإنسان التائب عند الله تعالى عزيزًا جدًا.

ثم قال [الرسول (ﷺ)] ما معناه: هناك عبد يذنب ثم يدخله ذلك الذنب الجنة.

قالوا: وكيف يكون ذلك يا رسول الله؟

قال: يكون ذلك الذنب قد وقف أمام عينيه فيتجرع الندم كل لحظة فيلتمس العذر. وهذا الندم وهذا العذر يُدخلانه الجنة آخر الأمر. يرى عبدٌ يوم القيامة كتاب الذنوب، فيسلك طريق جهنم. فيقال له: اقرأ الوجه الآخر. يقرأ، فيرى كل ما فيه طاعات، لأنه تاب توبةً نصوحًا، فبدّل الحق تعالى معاصيه طاعات. فذلك الرب الذي جعل الرمل طحينًا من أجل الخليل، والحديد شمعًا من أجل داود، وحوّل الطين إلى طائر من أجل عيسى، ودم الحيض إلى غذاء للجنين، في مقدوره أن يبدل المعاصي طاعات عندما يشاء.

وجاء في الأثر عن الرسول (ﷺ): كان هناك شخص اسمه «مُقبل التّمار»، كان بائعًا للتمر. جاءت امرأة، فرأت تمرًا جيّدا في دكان التمار. فقال [التمار]: لدي خير من هذا التمر في داخل الدكان. وعندما دخلت المرأة الدكان قبّلها وتعلّق بعباءتها، فدفعته تلك المرأة وقالت: فعلت فعلاً قبيحًا، عصيت الله وخُنت أختك في الإسلام.

وليس المقصود هنا ذكر قصة مُقبل، بل المقصود أن تعرف أنت ماذا ينبغي في معالجة الذنب. فعندما تاب مُقبل توبةً نصوحًا نزلت هذه الآية: (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ) (آل عمران/ الآية ١٣٥). ويقول جماعة: إنها نزلت في شأن «بهلول النباش».

---

(١) كليات شمس، ٨/ ١٦٦، الرباعية ٩٨٤ [الأصل].

يروي جابر رضي الله عنه أن شابًا من الأنصار، اسمه ثعلبة بن عبدالرحمن، كان يخدم الرسول (ﷺ). في يوم من الأيام مر بباب منزل أحد الأنصار ونظر إلى داخل المنزل، فوقعت عيناه على وجه امرأة كانت تغتسل. فوقف لكي ينظر. وعلى حين غرة خطر في باله: ألا يمكن أن يوحي الله تعالى إلى الرسول (ﷺ)، في شأني، فندم على نظر الشهوة هذه. فخرج من المدينة خجلاً إلى ذلك الجبل الواقع بين مكة والمدينة، بقي أربعين يومًا وليلة في ذلك الجبل يتأوه ويتضرع. وكان الرسول (ﷺ) يسأل عنه. وفي هذه الأربعين يومًا لم ينزل الوحي، حتى قال الكفار: «ودعه ربه وقلاه». وعلى حين غرة جاء جبريل يخبر بأن ذلك العبد وسط الجبل يستغيث من نار جهنم.

أرسل الرسول (ﷺ)، عمر بن الخطاب وسلمان الفارسي رضي الله عنهما أن ائتوني بثعلبة. فخرج الاثنان من المدينة، وسألا الراعي ذُفافة. فقال: هذا الشخص الذي تطلبانه مضى عليه أربعون يومًا وهو يضع كلتا يديه على رأسه ويئن [قائلاً]: ليتك تقبض روحي بين الأرواح ولا تبعثني يوم القيامة. وعندما بلغا الجبل، كان شطر من الليل قد انقضى. خرج ذلك الشاب وأخذ يردد: «يا ليتني قُبضَتْ روحي في الأرواح وتلاشى جسدي في الأجساد». وعندما أمسك عمر به قال: «الأمان، الأمان، متى الخلاص من الأوزار؟ يا عمر، خذني هنيهة إلى الرسول لعله يكون في الصلاة أو يكون بلال في الإقامة».

عندما سمع ثعلبة صوت قراءة الرسول القرآن زال منه اللب، ووقع على الأرض. وعندما فرغ الرسول عليه الصلاة والسلام من الصلاة، جاء إلى ثعلبة. من شعاع الرسول استعاد ثعلبة وعيه واسترد قوته وقال: يا رسول الله، بسبب الخجل من الذنب فررت. فقال الرسول عليه الصلاة والسلام: أعلِّمك آية يُغفر للعبد بها: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (البقرة/ الآية ٢٠١).

قال: ذنبي أعظم من ذلك.

(*) مختارات من الشعر الفارسي – الدكتور محمد غنيمي هلال – نهضة مصر للطباعة والنشر.

(١) لأن الجنين في بطن أمه يطعم الدم، وهو في مرحلة يشبه فيها الثمرة غير الناضجة المستمسكة بالغصن، وهي التي صور بها الشاعر حال المتعصب، هذا التعصب الذي يدفع صاحبه إلى قسوة تتغذى وتعيش على الدماء.

قال الرسول عليه الصلاة والسلام: بل إن كلام الله أعظم من ذنبك. ذهب ثعلبة إلى بيته، وظل ثلاثة أيام بلياليها يصلي حتى نحل جسمه وضعف كثيراً. جاء الرسول عليه الصلاة والسلام إليه ووضع رأسه على صدره. فجاء الأمر إننا نتجاوز عن معصيته. في هذه اللحظة نفسها ودّع ثعلبة الدنيا، فصلوا عليه (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) (البقرة/ الآية ١٥٦).

اخشَ يوم القيامة المحرِقَ للعالم
واخشَ سهم الانتقام الممزِّق للقلوب
فيا من غططتَ في ليل الحرص في نوم عميق
تنفسَ صُبحُ أجَلِكَ، فاخشَ النهار[1]

كتبتُ كتابا والفؤاد معذَّب
وقلبي على جَمرِ الغَضا يتقلَّبُ
وكنتُ أظنُ الموت أصعب فُرقة
ففُرقتُكم عندي أشد وأصعبُ

وصلى الله على محمد وآله الأكرمين..

****

(١) أي الفناء في الله، وهنا يقصد به محو الحياة الدنيا، وفي هذا تتحول السفينة والحكاية إلى رموز.

التعصب[*]

هذا العالَم - أيها الفتى - مثلُ الشجرة،
ونحن عليها مثل الثمرات نصف الناضجة.
فغيرُ الناضجة منها يشتدُّ تعلُّقها بالغُصن،
لأنها غيرُ طيبة، ولا تليق بالقصور،
وأما حين تنضجُ وتصير طِلبَةَ الشفاه الحُلوة
فإن استمساكها بالأغصان يَهونُ على الأثر.
فشدةُ الاستمساك والتعصُّب سذاجة،
ما دمتَ جنينًا فشأنك احتساءُ الدم[١]

****

(١) مدينة العشق عند الصوفية تقابل المدينة الفاضلة أو الجمهورية المثالية.

الفناء في الله هو حق الوجود

جلس في سفينةٍ نحويٌّ،
وتوجه مُغترّاً بذات نفسه شطر الملاّح،
وقال له: أتعرف من النحو شيئا؟
فقال له الملاح: لا،
فأجاب النحويُّ: ضاع منك نصفُ عُمرك.
فانفطر قلبُ الملاّح حسرةً،
ولكنه في تلك اللحظة صَمَتَ عن الجواب.
وألقت العاصفة بالسفينة في دوّامةٍ،
فتوجه الملاحُ إلى ذلك النحويِّ العالي الجناب:
خبرني: أتدري من السباحة شيئا؟
فأجابَه النحوي: كلاّ لا تَنشُد أنت مني سبّاحًا.
فقال الملاّح: فني كلّ عمرك أيها النحوي،
إذ السفينة بسبيل أن تغرق في اللَّجج.
إنما يلزُمك هنا المحوُ[1]، لا النّحو،
فإذا حُزتَ تلك الدرجة،
فسرْ في الماء ولا خَطر.
فماءُ المحيط يعلو مَفرق الميت به،
ولو بقي حيّاً فأنى له الخلاص من المحيط؟
فإذا فَنيتَ أنت عن أوصاف البشر،
حَملكَ بحر الأسرار على مَفرِقِه.

****

مدينة العشق[1]

قال معشوقٌ لعاشق: أيُّها الفتى
أنت قد رأيت في غربتك مدنًا كثيرة.
فخبِّرني: أية مدينة من هذه أطيب؟
فأجاب: تلك المدينة التي فيها من اختطف قلبي.
وإنه لأطيب من الدارين ذلك المكانُ
حيث أنال فيه سؤلي (أي إلهي) بحضرَتك!

✱✱✱✱

(١) حديث: المؤمن مرآة أخيه.

التعلل بالجبر

كل من يظَلُّ من الكسر بلا شُكرٍ وصبر،
يرى مع ذلك أن الجبر هو الذي قيَّد خُطاه.
وكل من يتعلل بالجَبر إنما يزجُ بنفسه في العِناد،
ويظلُّ كذلك حتى يُسلِمَه للقَبر،
والجَبر ما هو؟ أن تضمدَ عضوًا كسيرًا،
أو أن تصل بضمادتك عرقًا قطيعًا.
فإذا كنت في هذا الطريق غير كسير القَدم،
فبمن تَسخَرُ حين تلفُّه بالعصائب؟
وأما من جهدتْ قَدَمُه في طريق الكفاح،
فإن البُراق قد أتى إليه فاعتلاه.
قال الآثم: أيها الأمير:
إن الذي فعلته كان بحُكم الإله
فأجاب الحاكم: وكذلك ما أفعله أنا بك،
إنما هو حكم الحق، يا من أنت ذو باصرتين.

****

(١) الروح.
(٢) أي يتحطم قفص الجسم لينجو طائر الروح القدسي، والشراب كناية عن الوجد بشراب الحب في الحضرة الإلهية.
(٣) كناية عن الروح.

المـــــرآة

يا من تُشاهد الظلم سائدًا بين الناس،
إن محنتَكَ من محنَتهم، يا هذا.
ففيهم يَتَراءى وجودك أنت،
من نفاقٍ وظلمٍ وعربدة.
إن ذاك الإنسان هو أنت،
وذاك الأذى إنما تمارسه بنفسك،
وحُقَّ أن تلعن في تلك الساعة نفسك.
ألا ترى عيانًا هذا الشر من ذات نفسك؟
وإلا فأنت، إذن عدو ذات نفسك.
فالمؤمنون بعضهم لبعض مرآة.
كما ورد في الخبر عن النبي[1].

✱✱✱✱

الطائر القدسي[1]

ظللتُ أياما أُفكر نهارًا وطول الليل
أن لماذا أظلُ في غَفلةٍ عن شئُون قلبي أنا؟
من أين أتيتُ؟ ولأي جدوى كان مَقدمي؟
وإلى أين أذهب آخر الأمر، إذ لا يتراءى لي وطنٌ؟
وبقيت في عَجَب بالغ أن لماذا خُلقت!
أو ماذا كان مُراده من صنعي؟
فالروح التي هي من العالم العلوي، ولا ريب عندي فيه،
ستشُدّ رَحلها من جديد من حيث ألقيتُ أنا الرحل،
وقد تحملُني الروح إلى باب حانة ذلك المليك
حيث يعروني الخُمار من الشراب فأتحطَّم.[2]
فلست من عالم الأرض،
فقد صنع طائر[3] حديقة ملكوتي قفصًا لبضعة أيام.
فيا لطيب ذلك اليوم الذي فيه أطير حتى باب الحبيب،
على أمل أن أَخفق بجناحيَّ على عتبات ذلك الحي!
فمن ذلك الذي تُصغي أذني لأصواته؟
وأية كلمات وَضعها على لساني؟
ومن هذا الذي هو ملءُ الباصرة ومنها يُطل؟
ألا تخبرني ما تلك الروح التي كأني لها لباس؟

---

(١) الخربات كانت مأوى الشاربين، والمقصود هنا خمرة الحب الإلهي، ويظن أن كلمة الخربة أو الخرابة مرادفة للحانة.
(٢) حرفياً: الكأس الملكية.

فطالما لا يبدو لي منزلٌ ثَمَّ ولا طريق
فلن أستريح لحظة، ولن أهدأ بالاً آونة.
فأذقني خمر الوصال حتى أحطم باب سجن الأبد،
وأنا في سورة العربدة، شأن السكارى.
أنا لم آتِ هنا اختيارًا، فلأعد إلى هناك عن اختيار.
وليحملني إلى موطني من قدم بي إلى هنا.
لا تظن أني أقول هذا الشعر بذاتي
فطالما أنا على وعي ويقظة لا أنبس لحظة.

✱✱✱✱

وجد

أنا ثَملٌ وأنتَ مجنونٌ، فمن ذا الذي يقودُنا إلى المنزل؟
لقد نصحتُك مائة مرةٍ أن تُقِلَّ من الشرب كأسين أو ثلاثًا.
في المدينة لا أرى شخصًا صاحيًا من السُّكر:
كل امرئ أسوأ من الآخر: وَلهان ومجنونٌ!!
حبيبي، هَلُمّ إلى الخَرِبات[1] حتى ترى لَذة الرُّوح؛
وكيف يطيب للروح أن تكون بدون صُحبة الحبيب؟
في كل ركن شخصٌ ثملٌ، يده في يد نَجيِّه،
والرأس معربدٌ من ذلك الساقي بالكأس الإلهية[2].
أيها الخفيفُ الروح العازفُ على العود،
أأنت أوغلُ في السُّكر أم أنا؟
أيُّها الرائد[3]، إذ تثمل أنت فسِحري أُسطورةٌ!
أنت وقفٌ على الخربات، لا شأن لك سوى الخمر
فلا تدع حبةً من عقل لدى القادمين الصاحين.
لقد خرجت من المنزل، فبادرني هو بالسكر،
وكل نظرةٍ منه تخبئ وراءها مئات المنازل وحدائق الورد.
مثل سفينةٍ ضلت المرسى وجنحت إلى الغرق،
بها آلاف العقلاء والحكماء صرعى الحسرة.
قلت من أين أنت أيتها النفس؟

---

(١) قضية عامة للصوفية، هي تقديم العاطفة على العقل.
(٢) المراد العقل لأنه أصغر قيمة في قوى المرء.
(٣) خابية الخمر المراد بها الوجد مع جماعة المتصوفة الذين هم الناس في نظر الشاعر.
(٤) حرفياً: جعلني خرابًا، وشمس تبريزي من أساتذته في التصوف.

فهزأت قائلةً: نصفي من تركستان ونصفي من فرغانة،
شطري ماءٌ وطين، وشطري روح وقلب،
شطري من شط المحيط، والباقي الجوهرة الفريدة.
فقلت لها: كوني لي رفيقًا فأنا من أهلك.
فأجابت: لم أعد أعرف قريبًا لي من غريب.
لقد فقدت رأسي وتاج رأسي في منزل صاحب الحان.
ولي صدر به نجوى: أأشرحها أم أخفيها؟

✱✱✱✱

عار العقل[1]

أقبل العقل؛ فهيا لتتوارى بنفسك منه، أيها العاشق!
ويلتا ويلتا من العقل والوعي!!
فيا أيتها البصيرة أو الباصرة، إما الذهاب من مجتمعنا،
وإما التطهر من عار العقل بلا عين وأذن
فأنت - أيها العقل - مثل الماء، فانْأ عن نارها،
أو فأقدم لتغلي معنا في قِدْرنا.
فإذا لم ترد - أيها العاقل - أن يتحطم منك أصغرك[2]
فمت، لا تصارع الأمواج والمحيط!
إذا زعمت أنك عاشق فأمامك امتحان
فلا تلو رأسك إباءً، واحتس من خابية[3] خمر الرجال!
هأنذا أصيح، لكني من ثمل العشق
مثل قيثارتي، لا خُبْرَ لي بالصياح.
فقد دمر «شمس» وعيي بذات نفسي[4]
فأنت الساقي، وأنت الخمر، وأنت بائع الخمر في وقت معا!

(*) قصائد مختارة من ديوان شمس تبريز لجلال الدين الرومي نقلها من الفارسية الدكتور محمد السعيد جمال الدين - مكتبة الشروق الدولية - القاهرة.

(١) يعني بالروم: النهار، والحبش: الليل. أو لعله يعني بهما مختلف أجناس البشر.

(٢) إشارة إلى قميص يوسف عليه السلام - الذي أرسله مع إخوته من مصر، وكان أبوه يعقوب - عليه السلام - قد كف بصره لفقد يوسف، وحين جاء البشير وألقى القميص على وجه يعقوب ارتد بصيراً، وكان يعقوب قبل أن يأتي البشير قد شم ريح يوسف من بعيد.

(٣) جبل الطوّر في سيناء الذي تجلّى عليه الله - تعالى - إجابة لطلب موسى عليه السلام، انظر قوله تعالى:(فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) (سورة الأعراف: آية ١٤٣)، ويشبه الشاعر شيخه بالجبل الذي تجلت عليه أنوار الحق تعالى.

(٤) طابت سنتك وطاب شهرُك، بل طابت كل أوقاتك.

✷✷✷✷

(*) مطلعها: أي عاشقان، أي عاشقان، أي عاشقان امروز ما بيم وشُما
افتاده در غر قابه أي تاخود كه داند آشنا

(١) قد خلصنا من المادة ومن جذب التراب وصعدنا إلى العلا محلقين كالطير لا يعبأ بما يجري تحته.

(٢) السمك يطرب ويلهو في البحر حين تعصف الريح ويعلو الموج.

(٣) ليذهب بما بقي عندنا من وقار.

اللـســان

أي لساني!! كم من أذى أنت لي مأتاه!!
حين تفضي إليّ بحديثك، فماذا أقول أنا لك؟
أيها اللسان!! أنت النار والحصيد معًا،
وكم تشعل أنت هذه النار في هذا الحصيد!
تعاني - خفية - منك الروح
حتى لو استجابت إلى كل ما تقضي به لها.
أيها اللسان!! أنت الكنز الذي لا يُحَدّ
على حين أنت الداء لا دواء له في آن.

✱✱✱✱

(١) إشارة إلى نحافة القمر بسبب السير الدائم والبحث المستمر.
(٢) يجد الحبيب لذة في لوعته وعذابه في الحبّ.
(٣) العذار: الوجه، اللون.

ربيع العاشقين(*)

ألا يا ربيع العاشقين، أعندك عن حبيبنا خبر يقين؟
يا من بك المروج ضاحكة، والرياضُ حبلى

يا ريحًا ذات شذا، أدرك العشاق حبذا
يا من أنت أطهر من الروح والمكان، فأين كُنت قبلا؟

يا فتنة الروم والحبش[1] تملكتني الحيرةُ ، أخذني الدهش
أكان هذا الريحُ العذبُ قيمص يوسُفَ، أم روح المصطفى[2]

يا غَديرًا بَدَوْتَ صِدْقًا، من نهر الحبيبِ أنتَ حقّا
طورُ سيناء أنت للصدور[3] ، وللأرواح دُمت طرَبَا

يا عذْبَ القيل والقالْ، يا مليحًا في كُلِّ الأشكالْ
طابَ لكَ الحْول وطَابَ الهلالْ[4] دُمت لعبدك حولاً وهِلالا

****

(١) ريح الصبا: النفحات الرحمانية التي تهبُّ على العاشق (فرهنك ديوان شمس).
(٢) يعني الشعرى اليمانية، النجم المشهور بعلوه وتألقه.

أيها العاشقُون[*]

أيها العاشقُون، أيها العاشقُون، نحن اليوم وأنتم
قد وقعنا اليوم في لُـجَّةٍ، فمن يعرفُ السِّباحةَ منا

لو طَمَّ سيلٌ العالمَ، وطار كالجمل موجُ اليَمِّ
فما لطير الماء من غَمٍّ، فهل يغتمُّ طَيرُ الهوا[١]

قد أضأنا الوجْهَ بالشُّكر، قد بلونا الموج والبحرَ
مثلما كانَ البحرُ - والريحُ تعصفُ - للسَّمك طَرَبًا ولَهْوا[٢]

هذه الريحُ تُنْضجُ في كلِّ رأسٍ وَلَعًا آخَرَ،
فما فيها من وَلَعٍ مُلْكٌ لساقينا، والباقي كُلُّه لكم خَالِصًا

بالأمس ذهبَ ذاك الساقي ممشوقَ القَوَام
بألباب السُّكارى في عُرْض الطَّريقْ
واليوم يَسْخُو بِخَمْرٍ عتيقْ، كي يخْلعَ عنَّا القِبَا[٣]

****

جسدنا يشبه القمر

جسدنا يشبه القمر، يذوي من العشق[١]
قلبنا كربابة الزهرة، قد قطع الله منها الوتر

لا تنظر ذوب القمر، ولا ذَوَى الزهرة
أبصر حلاوة حزنه، فيكن واحدُه عددًا كبيرا[٢]

يا له من عرس في الروح، فلتكُن الدنيا بانعكاس طَلْعتهِ
كَيدَيْ عروسيْنِ ملؤهُما ندًى ونقشُهما زهْر

عِذارَ[٣] الجسم لا تنظُرْ، إذ يَرِثُّ ويَبْلَى
بل انظر عذارَ الروح، لن ترى أطيبَ منه عِذارا

الجسمُ الكدرُ كالغُراب الأسحَمِ، وعالمُ الجُسوم كفصل الشتاء
برغم كآبتهما يكوِّنان ربيعًا دائمًا أبدا

****

المحتوى

- تصدير ٣
- مقدمة ٥
- احتفالية الأمم المتحدة بميلاد جلال الدين الرومي ٧
- اليونسكو تحتفل بميلاد جلال الدين الرومي ٩
- الرومي في مرآة التاريخ ١٨
- الرومي بالعربية.. ألف بيت ٢٨
- العشق الإلهي عند الرومي ٣١
- الرومي في بلاد الغرب ٣٤
- إبداعات مولانا ومؤلفاته ٣٧
- الرومي في العالم العربي ٤٤
- الأغراض الشعرية في قصائد مولانا ٤٧
- العرفان الإسلامي ونبذه للتصوف المزيف ٥٠
- ماذا يقدم الرومي للعالم في القرن الجديد؟ ٥٥
- الدنيا كما يراها الرومي ٥٨
- قالوا $ الرومي ٦٣
- مختارات من قصائد الرومي ٨١

- كلمة أخيرة ١٢٧
- المراجع والمصادر ١٢٨
- المحتوى ١٣٠

✱✱✱✱